مجلة منتدى التوحيد

العدد التاسع
1430

مفهوم العقل بين الأصوليين والفلاسفة بقلم د. أبو مريم

الحرب على النقاب .. لماذا ؟! بقلم أميرة الجلباب

التحدي الأعظم الجزء الثاني بقلم الأستاذ bellal

العلاقة بين الفلسفة الرشدية والعلمانية

بقلم د. أحمد الطعان

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات العدد

مجلة منتدى التوحيد
مجلة دورية تصدر كل شهر

تأسست عام
١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م

تصدر عن موقع
منتدى التوحيد
www.eltwhed.com

العدد التاسع
ذو القعدة ١٤٣٠ هـ

فريق التحرير
مراقب ٢
عبدالإله الفايزي
muslimah
قرآن الفجر

فريق التصميم
أبو عمر الأنصاري
هاني

المراسلات
altwhed_com@yahoo.com

٣ مقدمة العدد
٥ هدي النبي ﷺ في تعليم العقيدة (٣)
٧ العلاقة بين الفلسفة الرُشديةِ والعلمانية
١٥ جمهرة مقالات محمود شاكر «أعيادنا»
١٦ الحرب على النقاب .. لماذا ؟!
٢١ لا أعلم هويتي (٥)
٢٥ التحدي الأعظم (٢)
٣٠ مفهوم العقل بين الأصوليين والفلاسفة

WWW.ELTWHED.COM

مُقدِمةُ العَدَدِ

لا يختلف اثنان متصفان بالعقل، على أن «الصاحب ساحب»، وعلى أن كل خليل متأثرٌ بخليله، لا يحول دون ذلك دعوى مدعٍ بوجود الحرية واستقلال الشخصية، وبالصحبة تحت سماء الإيمان بالآخر، فكل قرين بالمقارن يقتدي، بل هي أشد من ذلك وأنكى، إذ الهدي النبوي:‹‹المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل›› ومن ليس على علم بهدي النبوة لم يكونوا بعيدين عن مثل ذلك، إذ يقولون:‹‹قل لي من تُصاحب أقل لك من أنت!››، وعلماء الاجتماع يقولون أن «المغلوب مولع بتقليد الغالب».

وإن بعض بني جلدتنا ليقلدون «الغرب» في أسوإ ما عندهم، ويلوكون دعوى «الحرية الشخصية»، ومزاعم «تحرر العقل»، وهم إن قالوا فبتكرار ما يتردد على أسماعهم، وإن عملوا فبمحاكاة ما تُطالع أبصارهم، مع إصرار «مريب» بالإعجاب بكل ما يكون من الغرب، حتى إنك لتعجز عن التوفيق بين الأفعال التي يرتكبون، والدعاوى التي تتردد مما ذكر أعلاه، فظاهر أفعالهم التقليد الأعمى، وصريح دعاويهم حرية العقل ورفض الوصاية!

وإنه لمذموم عندنا مبدأ التقليد من غير حجة على أن ما نقلده هو الحق، وذلك بذم الله سبحانه للذين كفروا اتباعاً لآبائهم، ومستقل عندنا طلب الهداية نردده كل يوم خمس مرّات، من دون أن نجعل لقوة القوي سلطاناً على أنفسنا، ولا أن نجعل لبهرج أو زينة غشاوة على أبصارنا، لأن الله أمرنا أن نسأله الهدى والثبات.

أما أغرارنا المولعون بتقليد الغرب في إلحاده، أو فسقه، فعليهم أن يعيدوا النظر جيداً في عمق المنطلق الذي قامت عليه هذه الأمم، وأن ينطلقوا هم بالاتجاه البناء من نقطة الارتكاز التي هم عليها، وليس كل جلباب يحسن لكل لابس!

وأثر الصحبة الشخصية، أو العلمية ظاهر في أحوال الأمم، ومن صحب الأفضل منه هُدي إلى الأفضل، ومن صحب الأردى تردّى معه، وشواهد ذلك كثيرة وقريبة، فالغرب ضل حتى أعياه الضلال، وما أبصر الهدى حتى كانت لهم مع أهل الإسلام صحبة جوار مكانية «في الأندلس» وصحبة جوار فكرية، بمطالعة العلوم الإسلامية، فكان ذلك ناقلاً لهم من سلطان الضلال والاستعباد

المتطرف (بطاعة الأحبار والرهبان الذين يحرمون عليهم ما أحل الله ويُحلون لهم ما حرم الله) إلى سلطان الضد بالتحرر من كل شيء، وإني لأراهم يسيرون إلى نقطة التوازن شيئاً فشيئاً، ومتى ما هدأت في نفوسهم ثورة الهروب من استعباد الأحبار، ستهدأ معها ثورة الاندفاع نحو الحرية (الفالتة)، ليستقر بهم الأمر إلى الرشد الذي فطر الله الناس عليه، وما ارتفاع معدلات الدخول في الإسلام إلا شاهد على ذلك.

ومن الأمثلة على إثمار الصحبة، صحبة الأوس والخزرج لليهود، فإن اليهود كانوا أهل كتاب وهم أهل أوثان، واليهود بذلك خير منهم، فكان لجوارهم وصحبتهم، ومفاخرة اليهود لهم بنبي آخر الزمان، أثر في هدايتهم إلى ماهو خير مما هم عليه، ومما عليه «يهود»، فكانوا بذلك -رضي الله عنهم- أنصار النبي -صلى الله عليه وسلم- ونزل خبر رضوان الله عليهم من فوق سبع سموات ‹‹لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ››، ووعدهم الله الجنة وعد الصدق الذي لا يُخلف في غير ما موضع من كتاب الله، ‹‹وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ››، ‹‹لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى››، وهذه نصوص صريحة على أن الأنصار كلهم في الجنة.

فمتى سيُفيق إخواننا الذين زلت بهم قدم الحياة الدنيا وزينتها، ليعلموا أن الهدى هدى الله، وأنه ما صدق الله أحد في طلب الهدى إلا ويهديه إلى الإسلام؟ فالله سبحانه يقول:‹‹وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى››، ‹‹وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى››، وأما من علم من الحق شيئاً، ثم استكبر عليه وتركه، فإن الله يمد له مداً، حتى يُهلكه بتكبره وطغيانه، وإصراره على المعصية، فليسلك كل محب للحق لنفسه وللناس سبيل البحث عنه، وسيهديه الله بصدق نيته هدى حتى ينجو، ومن يُعرض فإن له معيشة ضنكاً، بنكد الحياة الدنيا، وبعذاب الآخرة، وإني لأكرر النداء لإخواننا الذين سمعوا كتاب الله وقرؤوه، واختاروا سبيل الغرب تقليداً وإعجاباً، أن يحذروا مخالفة أمر الله فليحقهم من ذلك ما يلحقهم «أن تصيبهم فتنة» فيطمس الله على قلوبهم ويمنعهم من أن يتوبوا فيمدد لهم الرحمن مدا.

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم العقيدة (3)

بقلم الشيخ د. عمر بن عبد الله المقبل
الأستاذ المساعد بقسم السنة كلية الشريعة وأصول الدين جامعة القصيم

روى البخاري (٥٦٥٣) ومسلم (٢٧٥٤) في صحيحيهما من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قدِم على ـ النبي صلى الله عليه و سلم ـ سبي فإذا امرأةُ من السبي قد تحلَّبَ ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

كم في هذا النص من المعاني والدلالات الإيمانية والتربوية! لعلنا نقف على شيء منها:

١ ـ التربية بالحدث:

فالنبي ﷺ رغم انشغاله بهذا السبي الذي قدم، وتأمُّلِه في كيفية تقسيمه، ومع انشغال الناس ـ أيضاً ـ بهذا، إلا أنه لم يغفلْ عن استثمار ما رآه من موقف؛ ليوصل من خلاله معنىً من المعاني الشرعية، وحقيقةً من الحقائق الإيمانية، بل وأصلاً من أصول العبادة.

ولقد كان هذا هدياً معروفاً عنه ﷺ، لا يكاد يُفوّتُ المواقفَ من غير تعليقٍ يوصلُ من خلاله رسالةً واضحةً لمعنىً من المعاني، ومن ذلك:

ما رواه مسلمُ في صحيحه (٢٩٥٧) عن جابر بنِ عبدِ الله ـرضي الله عنهـ أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العالية، والناس كنفته[١] فمرَّ بجَدْيٍ أَسَكَّ[٢] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء! وما نصنع به؟! قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه؛ لأنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»، ونظائرُ هذا في السُّنة كثيرة.

ولك أن تتصور أيهما أسرع وأقوى تأثيراً في النفس أن يُلقيَ الإنسان خطبةً عصماءَ في بيان حقيقة الدنيا، أم مثل هذا الموقف المُعبر الذي اهْتَبَلَهُ ﷺ؟!

وهذا الكلام نفسُه يقال عن تقرير عظمةَ صفة الرحمة لله جل وعلا كما سيأتي.

وهكذا شأن المربي الذي يحمل همّ تربية من حولَه على الإيمان والمعاني الفاضلة، فإنه يحرص كل الحرص أن لا يُفوّتَ أمثالَ هذه المواقف؛ ليربي من حوله بها، فهي ـ في الغالب ـ تغني عن عدة كلمات ينشئُها المربي

من حُرِّ لفظه.

٢ ـ الرحمة صفةٌ من أعظم صفات الباري جل جلاله وتقدستْ أسماؤه، بل هي من أظهر الصفات التي فطر الخلق على الإيمان بها، لِما يرون من آثارها المُبصرة، كما قال سبحانه: { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا [الروم: ٥٠]}.

وهي ـ كغيرها من صفات الله تعالى ـ لا يمكن الإحاطة بها، كما قال تعالى: { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه : ١١٠]، لكن هذا لا يعني تركَ بيان معانيها، وتقريبَ ذلك إلى أفهام الناس، كما وقع من النبي ﷺ في هذا الموقف.

٣ ـ كما كان هذا الحديث مقرِّباً لشيء من معاني وآثار هذه الصفة العظيمة من صفات الله تعالى (الرحمة) فهو ـ أيضاً ـ دالٌّ على معنىً عظيمٍ، وأصلٍ من أصول العبادة، ومحركٍ قوي من محركات القلوب، ألا وهو الرجاءُ والطمعُ في رحمة الله تعالى[٣]، وفتحُ هذا الباب أمام القانطين من رحمة الله تعالى، وقطعُ الطريق على المقنّطين من رحمة الله وفضله، وأولهم عدو الله الأكبر إبليس، فهو يُبْرِزُ هذا المعنى (أعني القنوط) في وجه الراغبين في التوبة بعد حياة مليئة بالكفر، أو بالفسوق والفجور، والبعد عن الله تعالى، فيقال لهم: تأملوا هذا الحديث وما فيه من تعظيمٍ لهذا المعنى.

ولْيتأمل كل من ضخّم الشيطان ذنوبَه ومعاصيه في نفسه قولَ النبي ﷺ : «للّهُ أرحم بعباده» فقد أضاف عبوديتهم له سبحانه، إيذاناً بالعفو والمغفرة والرحمة!

وإنك لَتعجبُ كيف يقنط إنسان من رحمة الله وهو يقرأ هذا الحديث الصحيح! أو يقرأ قول الله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣] ! ولهذا كان من فقه النووي ـ رحمه الله ـ أن أورد حديث عمر هذا في باب الرجاء من كتابه المبارك «رياض الصالحين».

٤ ـ أهل السنة حينما يتحدثون عن الرجاء، فإنهم يُقرنونه بصِنوِه وهو الأصل الثاني من أصول العبادة، وهو: الخوف، لذا فإن من فقه هذا الباب أن يكون الإنسان متوازناً بين هذين الأصلين، فإن قَرُبَ الأجل استحب للمؤمن أن يُغَلِّبَ جانب الرجاء من حسن الظن بالله تعالى، لحديث جابر رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : «لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظن باللّه عز وجل».

وههنا ملحظٌ في هذه المسألة ـ وهي مسألةُ الخوف والرجاء ـ ينبغي التنبهُ له:

أننا إذا كنا نتحدّث مع مجتمع أو شخص مقبلٍ على التوبة، وقد غلب الخوف عليه واشتد، فلا يحسن حينئذٍ أن نتحدث عن الخوف، بل المناسب هنا الحديث عن الرجاء، وفتْحِ أبواب التوبة أمام العصاة والمذنبين، لأننا في مقام كهذا لسنا في مقام تقرير الاعتقاد حتى يقال: لا بد من اكتمال الصورة، والحديثِ عن باقي الأصول (المحبة والرجاء) بل نحن في مقام معالجة لحالة مرضية، ولهذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما حدثهم بهذا الحديث الذي يدل على سعة رحمة الله، لم يستدرك في حديثه ويحدثهم عن مقام الخوف!

وكما أنه لا يَحسنُ توسيعُ باب الرجاء أمام أُناسٍ عُتاةٍ مجرمين، قد لجوا في طغيانهم، واستمرؤوا الذنوب والمعاصي، فكذا الحال هنا.

وإنما نبهتُ على هذا لأننا نلحظ من بعض الوعاظ ـ وفقهم الله ـ من يغيب عنه هذا الهدي النبوي في تقرير هذه المعاني العظيمة، وينسى أو يخفى عليه أن لكل حالةٍ لُبوسُها، والله تعالى أعلم.

العلاقة بين الفلسفة الرشدية والعلمانية

بقلم د. أحمد الطعان

الحمد لله الذي أكرمنا بنور الهداية وأخرجنا من ظلمات الغواية ، وجعل لنا في كل شيءٍ آية، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه صلاةً دائمة بلا نهاية وبعد :

فقد درج بعض الباحثين على البدء بالتأريخ للعلمانية منذ عصر النهضة[١] الذي يؤرَّخُ لبدايته عادةً مع فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣[٢].

كما درجوا عادة على اعتبار مساوئِ الكنيسة واضطهادِها وتاريخها الأسود[٣] هو الذي أنتج العلمانية[٤]. بيد أننا إذا رجعنا إلى الوراء قليلاً إلى القرن الثالث عشر سنجدُ أن بدايات الصراع بين الفكر والكنيسة يمكن أن يُعتبر من آثار ترجمة الفكر الرُّشدي إلى اللغة اللاتينية، وبالتالي فيمكن القول: إن الفكرَ الرشدي العلماني – بالاعتبار الغربي - هو الذي أنتج الاضطهادَ الكَنسي، ثم إن هذا الاضطهادَ ساهم في شيوع الفكرِ الرشدي وانتشارِه في الغرب، ذلك أنه من المعروف في تاريخ المعتقدات والآراء أن أكثر ما يُسهم في انتشارها هو الاضطهادُ والقمع والمحاصرة[٥].

لقد حرر الفكرُ الرشدي الغربَ من سيطرة الكنيسة فبدأ يراجع مُسلَّماتِه التي ظلت طيلة ألف عام فوق العقل، ولا يجرؤ أحد على المجاهرة بما يناقض المسلمات الكنسية. وقد تم ذلك على يد ميشيل سْكوت فهو أولُ من أدخل ابن رشدٍ إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر، وجميعُ كتب ابن رشد المهمة تقريباً تُرجمت من العربية إلى اللاتينية في أواسط القرن الثالث عشر.[٦] ومن المعروف لدى باحثي الفلسفة أن ابنَ رشدٍ تبنى مذهب أرسطو وانبهر به انبهاراً لا يقل عن انبهار بعض المعاصرين اليوم بالفكر الغربي وسُمي « الشارح» وعُرف في الغرب بهذا اللقب[٧] لقد كاد ابنُ رشد أن يُفضل أرسطو على الأنبياء واعتبره أكملَ البشر حين قال: «نحمد حمداً لا حد له ذاك الذي اختار هذا الرجل -أرسطو- للكمال فوضعه في أعلى درجات الفضل البشري التي لم يستطع أن يبلغها أي رجل في أي عصر كان»[٨].

وإذا كان العلمانيون اليوم يشيدون بابن رشدٍ ويعتبرونه رائدَ عصر التنوير، وسيدَ العقلانيين العرب

ومطلقُ ثورة العقل العربي.[٩] ويهاجمون الفكر الإسلاميَّ السلفي باعتباره فكراً تقليدياً، ويُسمُّون دعاة هذا الفكر «مُلاك الحقيقة المطلقة»[١٠] ويتهمونهم بممارسة الإرهاب الفكري بالإقصاء والنفي فإن رائدَهم هذا هو الذي ينفي كل الآخرين ويعترف بأرسطو وحده وذلك «لأن مذهب أرسطو [بنظره] هو الحقيقة المطلقة، وذلك لبلوغ عقله أقصى حدود العقل البشري، ولذا فإن من الحق أن يقال عنه: إن العناية الإلهية أنعمت به علينا لتعليمنا ما يمكن أن نتعلم»[١١] ٠

لقد تزامن انتقالُ الفكر الرشدي إلى الغرب مع عاملين:

العامل الأول :

الفتحُ الثقافي الإسلامي والعربي للبلاد الأوروبية.

فقد كان ذلك الفتح هائلاً ولم يكن ابنُ رشد وحده هو الذي يحتل الساحة الثقافية الأوربية بل أعلامٌ كُثر، يقول أحد علماء اليهود مبيناً هذا الأثر: «إنه لم يبق بين اليهود الخاضعين للعرب واحد لم يتركْ دين إبراهيم، ولم تُفسدْه ضلالات العرب أو ضلالات الفلاسفة»[١٢].

وقد بلغت السلطةُ الثقافية العربية في الغرب آنذاك أن بعض الأعلام الغربيين مثل أولهرد فون باث يعترفُ بأنه كثيراً ما نَحَل أفكارَه الخاصة مؤلفين عرباً حتى تظفرَ بالرواج[١٣]. والشاعر الفرنسي «فولشير الشارتي» سَحره العرب أثناء الحروب الصليبية بأخلاقهم وحضارتهم فقال: «أفبعد كل هذا ننقلب إلى الغرب الكئيب، بعدما أفاء الله علينا وبدل الغرب إلى الشرق»[١٤].

وبين أيدينا نصٌّ طويل ولكنه يجلي الصورة بوضوح للعلاقة الثقافية آنذاك بين المسلمين والغرب. يقول أُسقف قرطبة «ألقارو»: «إن كثيرين من أبناء ديني يقرؤون أساطير العرب ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين ليس ليدحضوها، وإنما ليتقنوا اللغة العربية، ويُحسنوا التوسلَ بها، وأين نقعُ اليوم على النصراني من غير المتخصصين الذي يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل؟ واحسرتاه! إن الشباب النصارى جميعَهم اليوم الذين لمعوا وبزّوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لغةَ العرب والأدب العربي ... منفقين المبالغ الطائلة في اقتناء الكتب العربية، ويذيعون جهراً في كل مكان أن ذلك الأدب العربي جديرٌ بالإكبار والإعجاب، ولئن حاول أحد إقناعَهم بالاحتجاج بكتب النصارى فإنهم يردون باستخفاف: وامصيبتاه! إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم فلا تكادُ تجدُ اليوم واحداً في الألف يستطيع أن يُدبّجَ رسالةً بسيطة باللاتينية السليمة، بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاءَ من يُحسن منهم العربية تعبيراً وكتابة وتحبيراً. بل إن منهم من يَقرُضون الشعر بالعربية حتى لقد حذقوه وبزوا في ذلك العرب أنفسهم».[١٥]

هذا العاملُ جعل الغربيين كما هو ملاحظٌ من النصوص ينبهرون بالحضارة الإسلامية الغازيةِ مما حدا بالتنويريين والمتحررين منهم أن يتعاطفوا مع هذه الحضارة، ويتقبلوا الفكر الوافد ليس على أنه فكرٌ مُعادٍ، وإنما على أنه فكرٌ إنسانيٌّ يُسهم في رقي الإنسان وتَحضرِه حتى لقد كاد روجر بيكون ١٢١١ – ١٢٩٤م أن يُعدم حرقاً بسبب شَغفه بكل ما هو عربيٌّ وتحمُّسِه لعلومهم، وطُرد من أكسفورد لمدة عشر سنوات بسبب شجبِه للمعاملة غير الإنسانية للعرب، ولهجِه دائماً بأسماء علمائهم، ومخالطتِه للكفرة أعداءِ الرب –المقصود العرب والمسلمين–

وإشادتِه بآلاتهم وأجهزتهم، وتدوينه لتجاربهم، ونقدِه الدائم للنظام الكنسي، فاتُّهم لذلك بالاشتغال بالسحر وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة ولكن التعيس مات شقياً بائساً بعد أن قضى خمسة عشر عاماً في أعماق السجن المظلم الرطب عام ١٢٩٤م[١٦].

العامل الثاني:

لقد ترافق انتقالُ الفكرِ الرشدي إلى الغرب مع أجواء الحروب الصليبية، وحالةِ العداء الشديدة التي تزعمتها الكنيسة لكل ما هو عربيٌّ وإسلامي. كان ذلك منذ أن دعا البابا أوربانُ الثاني في القرن الحادي عشر الميلادي ١٠٩٥ م في كلير مونت بفرنسا إلى تحرير قبر المسيح المقدس وكان يوصيهم قائلاً: «عليكم أن تُطهِّروا الأرض المقدسة التي يعيش فيها إخوانكم المسيحيون من أولئك الرعاع»[١٧]، فبدأ الوعاظُ يطوفون أوربا يؤلبون الفرسان «العاطلين عن العمل» بحماس لكي ينقذوا قبر المسيح، وكانت هي في الحقيقة دعوى تخفي أطماع الكنيسة السياسية[١٨].

في تلك الأثناء التي كان الغرب يتربص بالمسلمين الدوائر، والكنيسة تُجيّش الفرسان، وتُحمِّس الجنود لقتال الكفرة الفجرة كان الأسقف أجناتيوس في بيزنطة يتلقى رسالة من أخيه الروحي البطريرك تيودوسيوس من بيت المقدس يقول فيها: «إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام وهم لا يحاربون النصرانية بل على العكس من ذلك يحمونها ويذودون عنها، ويوقرون قساوسَتنا ورهباننا ويُجِلون قِديسينا»[١٩]

ولكن الخُطبَ الحماسية الرنانة كانت قد فعلت فِعلها في قلوب المسيحيين وأججت نارَ الحقد المسعور حتى دفعتهم أن يدخلوا بيت المقدس فيحصدوا الأرواح حصداً، ومصادرُهم الغربية تشير إلى أنهم ذبحوا قرابة عشرة آلاف إنسان في الشوارع من النساء والأطفال والرجال[٢٠]. ومما يزيد الجرحَ عمقاً أن أحد البطاركة نفسَه كان يعدو في زقاق بيت المقدس وسيفُه يقطر دمًا يحصد به كل من يواجهه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة فغسل يديه وهو يردد: «يَفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس حقاً إن للصِديق مكافأةً وإن في الأرض إلهاً يقضي».[٢١]

لقد كان البابا يخاطب الفرسان الصليبين قائلاً: «أيُّ خزيٍ يُجللنا، وأي عارٍ لو أن هذا الجنس من الكفار الذي لا يليق به إلا كل احتقار، والذي سقط في هاوية التعري عن كرامة الإنسان، جاعلاً نفسه عبداً للشيطان قد قُدِّر له الانتصارُ على شعب الله المختار».[٢٢]

وكانت الحملةُ الصليبية الثانية سنة ١١٤٤م شارك فيها لويس السابع ١١٢١ – ١١٨٠م وكونرادُ الثالث ١٠٩٣ – ١١٥٢ م ملكا فرنسا وألمانيا ولم تُنجز شيئاً[٢٣] ثم استعاد صلاح الدين بيت المقدس سنة ١١٨٧ م ولم يفعل كما فعل النصارى قبل ثمانٍ وثمانين عاماً بل احتل المدينة احتلالاً نظامياً وإنسانياً لم يؤذِ فيه أحداً من النصارى، ولم ينهب بيوتهم، ثم أطلق الأزواج والأسرى، وقدم الهبات والعطايا للأرامل واليتامى.[٢٤]

وفي سنة ١١٨٩م قاموا بحملة صليبية ثالثة شارك فيها فريدريك بربروسا ١١٥٢ – ١١٩٠م ملك ألمانيا. وفيليب أغسطس ١١٦٥ – ١٢٢٣م ملك فرنسا، وريكاردوس قلبُ الأسد ١١٥٧ – ١١٩٩ ملك انكلترا، ولكن الحملة باءت بالفشل[٢٥]

وعموماً فقد نجحت الحروب الصليبية «المقدسة» في خلق شُقةٍ واسعة تفصل بين الشرق والغرب بدلاً من أن تعيد تدعيم الجسر الرابط بين ثقافتين تجمع بينهما في نهاية المطاف مفاهيمُ إيمانيةٌ مشتركة[٢٦].

في مثل هذه الظروف العدائيةِ احتكَّ الفكرُ الرشديُّ

بالغرب فما كان من الكنيسة إلا أن جندت سَدَنتها لمحاربة الفكرِ الرشديِّ الغازي فقامت بترجمة كتاب «تهافت التهافت» ترجمةً لاتينية بعيدةً كل البعد عن حقيقة الكتاب ومحشوةً بالتحريف والتناقض والافتراء[٢٧]،علماً بأن ابن رشد مشائي أرُسطي في أغلب فلسفته، والكنيسةُ كذلك كانت تتبنى نظريةَ أرسطو في الكون، ولكن الذي منعها من مُهادنته والتحالف معه هو أنه عربيٌّ مسلم. وبذلك كان جُلُّ خُدامِ الكنيسة في القرن الثالث عشر متفقين على مناهضة الرشدية ومحاربتِها ومن هؤلاء ريمون لول، وجيل دوروم، وتوما الأكويني، وألبرت الكبير، وغليوم الأفرني، وبترارك[٢٨].

لقد شن ريمون لول حرباً صليبية في القرن الثالث عشر ضد الرشدية، والرشدية عنده تساوي الإسلام، وهدْمُ الإسلام كان حلمَ حياته السعيدة وبلغت أهميةُ ريمون لول منتهاها بين سنتي ١٣١٠ و١٣١٢م على الخصوص حيث تنَقل في أوربا مُفنداً ابنَ رشد ومحمد صلى الله عليه وسلم، وقد اقترح على كليمان الخامس إيجادَ منظمةٍ حربية جديدة لهدم الإسلام، وإنشاءَ كلياتٍ لدراسة العربية، والحكمِ على ابن رشد وأتباعِه[٢٩].

وأما بترارك فقد بلغ به الحقدُ على العرب والمسلمين أن شن مقاطعةً اقتصادية وثقافية لكل ما هو عربيٌّ وإسلامي، فيرفضُ أن يتعاطى أي دواءٍ عربي، أو يحملُ اسماً عربياً، ويقول لصديقه: «أرجو منك فيما هو خاص بي ألا تعتمد على عَربك[٣٠] وأن تعُدَّهم كأنهم لم يكونوا، فأنا أمقت هؤلاء القوم وأعرف أن بلاد الروم[٣١] أنجبت علماء وبلغاء وفلاسفة وشعراء ورياضيين وخطباء، وهناك وُلد الطبُّ أيضاً، وأما أطباءُ العرب فعليَّ أن أعرف من هم، وأما أنا فإنني أعرف شعراءَهم فلا يمكنني أن أتصورَ من هو أكثر منهم تخنثاً وارتخاء وهجراً...

ولا أكاد أُحمل على الاعتقاد بإمكان صدورِ ما هو صالح عن العرب، ومع ذلك فبأي حق لا أدريه أيها العلماء تغمرونهم بمدائحَ لا يستحقونها». ثم يصف من يمدح العرب بحضرتِه بأنه كمن يطعنه بخنجرٍ أو يلسعُ قلبه بقراص[٣٢].

إن هذا النص بالإضافة إلى كشفه عن مدى الحقد الصليبي الذي امتلأت به قلوبُ بعض خُدام الكنيسة، فهو يلفتُ النظر أيضاً إلى المدى الذي بلغته الثقافةُ الإسلامية في امتلاكِها لناصية الحضارة والعلم، واجتذابِها لتعاطف الأعداءِ قبل الأصدقاء.

إن العاملَين الذين ذكرناهما وتحدثنا عنهما إلى الآن كلاهما أسهم في شهرة الفكر الرشدي وذيوعِه وانتشاره، فالتعاطفُ مع الحضارة الغازية من جانب الراغبين في التحرر من الاحتكار الكنسي للعلم والثقافة، والاضطهادُ الكنسي للفكر الرشدي ومحاربتُه والسعيُ إلى قمعه ونفيه جعل لهذا الفكر أنصاراً أو جماهيرا، ولكن كان للعامل الثاني الدَّورُ الأساس في بلورة الصورةِ الرشدية في أعين الغرب، وتحديدِ صفة هذا الفكر وذلك بوصمه بالإلحاد والكفر والزندقة، لتجعل منه الكنيسةُ ممثلاً للعَرَباوية - أي العرب - الذين سعت دائماً إلى اعتبارهم ملحدين كفرة[٣٣]. وذلك ليكون الإلحادُ وافداً من الشرق الإسلامي، بقصد تجييشِ الغرب الذي لا تزال السيادة فيه للمسيحية - ضد الإسلام - وإذكاءً لبواعث الحقد والكراهية الصليبية.

ولم يجدْ التيارُ العقلاني الناهض المتأثرُ بالعرب والمتعاطفُ معهم أيَّ غضاضةٍ في هذه الصورة التي رُسمت لابنِ رشدٍ وفِكرِه بل إنها تُقبِّلت بترحيب، واستُخدمت كسلاح مضادٍ للكنيسة والسلطات الكهنوتية بعكس ما أرادت هذه السلطات ورغبت.

وهكذا يكون ابنُ رشد افُتريَ عليه مرتين الأولى: من قِبل الكنيسة، والثانية: من قِبل التيار المناهض لها، وأُريدَ له أن يكون ملحداً زنديقاً من قِبل الطرفين، واتخذته الرشدية اللاتينية التي بدأت تتصادم مع الكنيسة غطاءً لأفكارها التحررية، وستاراً لدعوتِها العلمانية[٣٤].

هذا التوظيفُ الغرضيُّ[٣٥] للفكر الرشدي ساعد في الواقع على بروز ابنِ رشدٍ كرائدٍ للعقلانية في مواجهة القمع والاضطهاد الفكري الكنسي، فبدأت تتزايد ترجمات كتبه إلى اللاتينية تزايداً هائلاً حتى لم تكد تمر سنة فيما بين ١٤٨٠ م و ١٥٨٠ م دون ظهور طبعةٍ جديدة لإحدى تلك الترجمات[٣٦]. وطوال عدة قرون تاليةٍ درست أوربةُ فلسفةَ أرسطو من خلال عيني ابن رشد، واحتلت الرشدية مقام السيادة في الجامعات الغربية الكبرى[٣٧] مثل جامعة «بادوفا» في إيطاليا التي أصبحت معقلَ الرشديين فيما بعد[٣٨].

ثم توسع انتشارُ الأضاليلِ الرشدية -على حد تعبير المسيحيين المحافظين- حتى وجدت لها صدىً في الجامعة الباريسية حتى يمكن القولُ إن رسائل توما الأكويني، وألبرت كانت موجهةً شخصياً ضد أساتذةٍ باريسيينَ تأثروا بالرشدية[٣٩] وهو ما يبدو واضحاً في رسالة لتوما تحمل عنوان «ضد الرشدية الباريسية»[٤٠].

والذي يبدو أن الرشديةَ أصبحت في ذلك الوقت كالعلمانية اليوم معياراً -لدى جماهيرها- للثقافة والتحضر والرقي، فلا بد لكي يُعدُّ الباحثُ من المثقفين واسعي الإطلاع أن يتشدق باسم ابن رشد، ويتفوه ببعض أفكارِه. لقد أصبحت الرشديةُ في نظر المحافظين «ابتلاءً بالتشرق» على غرار «الابتلاء بالتغرب»[٤١] الذي نحاربه اليوم، وغدت ثقافةً دارجةً لدى الطبقة الراقية في البندقية[٤٢]، حتى أن الذي لا يتبنى الرشدية، ولم يطلعْ عليها يعتبرُ تقليدياً أو ظلامياً أو رجعياً على غرار ما هو سائدٌ اليوم لدى العلمانيين المتغربين، نستشفُ ذلك من حديث بترارك مع أحد الرشديين إذ يستشهد الأولُ أثناء حديثه بالقديس بولس، فيعبسُ الرشدي ازدراءً ويقول: «احتفظْ لنفسك بهذا النوع من المعلمين وأما أنا فلي معلمي، وأعرف من أعتقد». ثم يتابع الرشدي قائلاً: «إيه! ابقَ نصرانياً صالحاً، وأما أنا فلا أؤمن بواحدة من جميع هذه الأساطير، ولم يكن بولُسك، وأوغستِنك – أوغسطين – وجميعُ هؤلاء الناس الذين تقيم لهم وزناً غيرُ ثرثارين، آه! ليتك كنت قادراً على مطالعة ابن رشد... فتبصرُ مقدارَ ما هو أعلى من جميع هؤلاء المُجّان»[٤٣]

إن هذا النص فيه دلالاتٌ متعددة فهو يكشف عن المدى الذي بلغه الفكرُ الرشدي في السيطرة على عقول الطبقة المثقفة ودفعِها في طريق المواجهة للثقافة التقليدية التي يُمثلها كل من بولس وأوغسطين وبترارك، ولكن علينا أن لا ننسى أن مثل هذا الكلام لم يكن يمكنُ المجاهرةُ به لأن ذلك يؤدي إلى الموت، كلُّ ما في الأمر أنه حوارٌ شخصيٌّ يدور بين بترارك وأحدِ زائريه في منزله.

إن النص يكشف أيضاً عن جهل بترارك باللغة العربية التي يكتب بها ابنُ رشد ولذلك فإن الرشديَّ يتحسرُ لأن بترارك لا يمكنه قراءةَ ابنَ رشدٍ مباشرة، وقد سبق لنا قريباً أن نقلنا نصاً يوضح احتقارَ بترارك للعرب ولغتِهم وحضارتهم.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

هوامش المقال:

[١] انظر يحيى هاشم حسن فرغل «حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب» ص ١٢. الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة بالأزهر الشريف – دار الصابوني للطباعة – القاهرة – د. ط / د. ت.

[٢] انظر: جون هرمان راندال «تكوين العقل الحديث» ص ٢٨. ترجمة جورج طعمة، دار الثقافة – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٦٥. وانظر: أيضاً: وليم كلي راي «تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ٢٧، ترجمة: محمد سيد أحمد – المشروع القومي للترجمة – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١ م.

[٣] انظر: للقس دي روزا «التاريخ الأسود للكنيسة» – الدار المصرية للنشر والتوزيع - قبرص - نيقوسيا ط١ / ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.

[٤] انظر: سفر الحوالي «العلمانية» ص ١٢٩ دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع – السعودية ط ١ / ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م وهي في أصلها رسالة ماجستير في كلية أصول الدين – الأزهر تحت إشراف د. محمد قطب. – والعلمانية بين التخريف والتخريب – يحيى هاشم حسن فرغل ص ١٢ فما بعد وانظر أيضاً: «العلمانيون والقرآن» ص ٥١ فما بعد - رسالة دكتوراه في كلية أصول الدين - الأزهر.

[٥] انظر: لغوستاف لوبون «الآراء والمعتقدات» ص ٩٤ ترجمة: عادل زعيتر – المطبعة العصرية بالفجالة – الطبعة الثانية عام ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م وهنا نقول: إلى متى يظل المسلمون يجهلون هذه الحقائق فيسهمون بانتفاضاتهم ضد بعض الأعمال المنحطة والأفكار البذيئة بانتشارها، لقد أصبح نصر حامد أبو زيد الذي كان مغموراً لا يعرفه أحد أصبح أستاذاً عالميا تحتضنه جامعات الغرب، ويستقبله رؤساء الدول على أنه المفكر الحر والمبدع الهمام وكذلك رواية وليمة أعشاب البحر التي لم يسمع بها الناس إلا القليل طيلة ثمانية عشر عاما ثم فجأة تصبح مثالاً للإبداع الفني وتباع بأسعار باهظة.

[٦] : انظر: إرنست رينان «ابن رشد والرشدية» ص ٢١٨، ترجمة عادل زعيتر. القاهرة ١٩٥٧ – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه.

[٧] : انظر: عاطف العراقي «النزعة العقلية عند ابن رشد» ص ٧٠ – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الرابعة ١٩٨٤ وانظر قراءات ابن رشد ص ٨٤.

[٨] انظر: إرنست رينان: ابن رشد والرشدية ص ٧١.

[٩] انظر: د. أحمد عبد الحليم عطية. مقدمته لكتاب نيورباخ «أصل الدين» ص ٥ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١ م وانظر نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل ص ٥٨. المركز الثقافي العربي – بيروت – الدار البيضاء – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م حيث يصف فكر ابن رشد بـ «الخطاب الرشدي التنويري» وانظر أيضاً «قراءات ابن رشد» العدد الثامن الصادر عن الجمعية الفلسفية المصرية سنة ١٩٩٩ م ١٤٢٠ هـ حيث يوصف ابن رشد في أكثر المقالات المشاركة في هذا العدد بأنه رائد العقلانية والتنوير انظر ص ١٣ص٦٤ ص٨٩ وانظر ص ١٥٣ بحث جيد للدكتور يوسف زيدان يرد فيه على المغالين في تمجيد ابن رشد ويعتبر ما يقال عنه في كتابات المعاصرين ما هو إلا تهويل ومبالغة وعدوى أصابتهم من الغرب لما وجدوه يحتفي بابن رشد ص ١٥٥.

[١٠] عنوان كتاب لمراد وهبة نشرته مكتبة الأسرة. ١٩٩٩ م. بالاشتراك مع دار قباء.

[١١] انظر: إرنست رينان « ابن رشد والرشدية» ص ٧١.

[١٢] انظر: إرنست رينان « ابن رشد والرشدية « ص ١٩٣.

[١٣] : انظر: زيغريد هونكه «الله ليس كذلك» ص ٨٧ – ترجمة د غريب محمد غريب – الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م دار الشروق – القاهرة.

[١٤] : انظر: السابق ص ٤٣.

[١٥] زيغريد هونكه « الله ليس كذلك «ص٤٢».

[١٦] انظر: السابق ص ٨٦

[١٧] السابق ص١٧.

[١٨] انظر: السابق ص ١٥ وانظر: للقس دي روزا « التاريخ الأسود للكنيسة « ص ١١٢ ترجمة آسر حطيبة – الدار المصرية للنشر والتوزيع قبرص – نيقوسيا – الطبعة الأولى –١٩٩٤ م ١٤١٥ هـ.

[١٩] زيغريد هونكة « السابق» ص ٢٠.

[٢٠] السابق ص ٢١.

[٢١] السابق ص ٢٢.

[٢٢] السابق ص ٢٣.

[٢٣] انظر: روم لاندو « الإسلام والغرب» ص ١٢٥، ١٢٦. ترجمة منير البعلبكي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٦٢.

[٢٤] السابق ص ١٢٦.

[٢٥] السابق ص ١٢٦، ١٢٧.

[٢٦] السابق ص ١١٥.

[٢٧] انظر: إرنست رينان « ابن رشد والرشدية « ص ٨٠.

[٢٨] انظر: إرنست رينان « ابن رشد والرشدية» ص: ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٦٣، ٢٦٧، ٣٤١.

[٢٩] السابق: ص ٢٦٧.

[٣٠] من الواضح أن صديقه كان متعاطفاً مع العرب.

[٣١] في النص «اليوم» وأظنه خطأً مطبعياً فرجحت أنها «الروم» ليستقيم المعنى.

[٣٢] انظر: إرنست رينان « ابن رشد والرشدية» ص ٣٣٨، ٣٣٩.

[٣٣] انظر: السابق ص ١٧٣.

[٣٤] انظر: دكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف مقاله في « قراءات ابن رشد» العدد الثامن الصادر عن الجمعية الفلسفية المصرية ص ٩ سنة ١٩٩٩م.

[٣٥] أستخدم كلمة «غرضي» كبديل لكلمة إيديولوجي التي يستخدمها العلمانيون كثيرا في مثل هذا الموطن. وسوف نستخدم بدلا منها أحياناً كلمة «فكراني « نقلاً عن د. طه عبد الرحمن.

[٣٦] انظر: رينان السابق ص ٩٩.

[٣٧] انظر: روم لاندو «الإسلام والغرب» ص٢٣٠.

[٣٨] انظر: يوسف كرم « تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ١٠.

[٣٩] انظر رينان «السابق» ص ٢٧٩.

[٤٠] السابق ص ٢٨٠.

[٤١] عنوان كتاب لـ: جلال آل أحمد – ترجمه د. إبراهيم الدسوقي شتا – المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.

[٤٢] انظر: رينان «السابق» ص ٣٤٣.

[٤٣] رينان «السابق» ص ٣٤١.

من أقوال السلف

قال ابن تيمية: «إن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين وهذا هو دين الإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد ديناً غيره قال تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾»

مجموع الفتاوى ج١ ص١٨٨-١٨٩.

قال ابن خلدون: «إن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونه وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضا فلابد له من أسباب أخر ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه».

المقدمة ص ٤٥٨

« إن الصبي الصغير في أول تمييزه يعلم بأنه لا يكون فعل إلا لفاعل فإنه إذا رأى شيئا قال من عمل هذا ولا يقنع البتة بأنه العمل دون عامل وإذا رأى بيد آخر شيئا قال من أعطاك هذا»

الفصل بين الملل و الأهواء و النحل ج ١ ص ١٢

جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر

أعيادنا

أعيادُ الأمم هي الأيامُ التي تُستعلنُ فيها خصائصُ الشعوب وذخائرها وخلائقها الأدبية والعقلية والنفسية والسياسية. هي الأيام المبتهجة التي تنبض بالحياة وأسبابِها في الأمة، لتدل على السر الحيوي الساري في أعصاب الحياة العملية اليومية المتتابعة على نظام من الجَدِّ لا يكاد يختلف.

واحتفال الشعب بأعياده أمرٌ ضروري لإعطائه المثل الأعلى وإمدادِه بالروح التي تدفعه إلى مجده، أو إلى المحافظة عليه. فهو من ناحيتيه يُظهر ما في الشعب من خصائصه ومحامده وعيوبه، ويبقي على المثل الأعلى بالتجديد والبهجة والزينة.

فأعياد الأجانب الأوروبيين مثلاً تكشف عن قوتِهم واعتدادِهم بأنفسهم، وتعشقهم لجمال الحياة الدنيا إدماناً وإغراقاً، وعن جعلِهم المجاملة أصلاً أخلاقيًا في أنفسهم وأهليهم، وعن غرورهم واستهتارهم واستهانتهم بأكثر الفضائل الإنسانية حين تجري في دمائهم عربدةُ الطغيان الإنساني المتوحش الذي يرتد إلى الغرائز الحيوانية المستأثرةِ باللذة، المجردة من الورع والتقوى.

وأعيادنا نحن تهتك الحجاب عن ضعفنا وذلتنا، واستكانتنا لما نشعر به من الضعف والذلة، وتبين عن ذهول الشعب عن نفسه وتاريخه، وعن مجده، وتعلقه بتُرَّهات الحياة، وقلة مبالاته بجمالها، وانصرافِه عن معرفة الأحزان الخالدة في طبقاته بخلود الفقر والجهل والبلادة.

فهل يزدلفُ إلينا ذلك اليوم الذي تتمثل فيه أعياد الشعب الإسلامي صورةَ السيطرة والسيادة والقوة، وتتبدَّى عليه أفراحُ الحياة الراضية المؤمنة المطمئنة، وتعود إليه الأخوةُ الإسلامية التي ساوت بين الناس غنيهم وفقيرهم وعالمهم وجاهلهم، وجعلتهم سواءً لا فضل لأحد على أحد إلا بالخُلُق والتقوى؟ هل يأتي ذلك اليوم السعيد الذي يجعل أعيادنا صورةً من مدنية دين الله التي تبدأ بالرحمة والحنان والتعاطف، وتنتهي بالعمل والجد والصبر والتعاون؟ يومئذ تكون السيادة العليا للمدنية المستقبلة، مدنية الحرية التي لا تشتهي أن تَفْجُر، والعلم الذي لا ينبغي أن يكفر.

الحرب على النقاب.. لماذا ؟!

بقلم أسيرة الجلباب

هندسة اتصالات وإلكترونيات، وباحثة في قضايا المرأة.

آفاق حرة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد،،

لقد أصبح من المعلوم من الوطن بالضرورة عند كثير من الشعوب العربية، أن ما يدعو إليه الدين تحاربه الحكومات العلمانية، وما تحاربه الحكومات العلمانية هو بالتأكيد من صحيح الدين والسنة النبوية !!

وأصبحت لعبة الموالاة للغرب –مسقط رأس العلمانية اللادينية- مكشوفة، ومحاولات خداع المسلم العامي مفضوحة، ولن ينطلي عليه الخداع في دينه بهذه العبارة المعلبة، المستوردة، المحبوكة، «النقاب عادة وليس عبادة»، لأنهم خدعوه من قبل كثيرا وغشوه في طعامه وشرابه وأسباب معاشه، وأذاقوه الذل والهوان ومحوَ كرامة الإنسان!

لن تنطلي الخدعة المحبوكة «عادة وليس عبادة» على المسلم البسيط، والمواطن المطحون، لأنه شرب من هذا النوع من الخداع ومن أمثاله كثيرا، فلم يعد يثق فيهم، ولم يعد يثق في مصدر هذا الكلام، لأنه يعلم أن مصدره الدولة وليس الدين، وأن المؤسسة الدينية الرسمية لم تعد مصدر ثقة عمياء، ولم تعد للأسف قراراتها وفتاويها دينية بقدر ما هي سياسية، ولصالح جهات مشبوهة، لا تريد له خيرا في دينه أو دنياه!!

لقد أصبحت المعادلة واضحة وبسيطة ومفهومة وينبغي حفظها: «ما تعاديه الدولة العلمانية وتستنفر لأجله الجهود السريعة الحاسمة بالشكل الذي لا تفعله مع شيء من مصالح العباد والبلاد المتراكمة والملحة؛ هو بالتأكيد من صحيح الدين ومما يزعج أسيادهم إزعاجا شديدا».

يا باغي الحق أقبل!

كيف يقال عن النقاب عادة، وليس من الشريعة، والأدلة على مشروعيته في الكتاب والسنة كثيرة بثيرة؟!

نكتفي منها في هذا المقام بحديث واحد جليل، يؤكد مشروعيته، وهو حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما -وهو من أصح إسناد يكون- لما قالت: «كنا نغطي وجوهَنا من الرجال، وكنا نمتشط قبل ذلك في الإحرام» (١) .

وأيضا حديث فاطمة بنت المنذر، قالت: «كنا نُخَمِّر وجوهنا، ونحن محرمات مع أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنهما» (٢)

وأسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- هي جدتها.

هذا الدليل من فعل الصحابية الجليلة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وحفيدتها فاطمة بنت المنذر، يؤكد **«مشروعية النقاب»** المفترَى عليها، بأوضح بيان، وأدل برهان، والقول بخلاف ذلك كذب وبهتان.

ويدحض كذلك دعوى اختصاصه بأمهات المؤمنين -رضي الله عنهن- فقط.

يعلق فضيلة الشيخ «محمد بن إسماعيل المقدَّم» قائلا: **«وفي تعبير أسماء رضي الله عنها بصيغة الجمع في قولها:** «كنا نغطي وجوهنا من الرجال» **دليلٌ على أن عمل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم كان على تغطية الوجوه من الرجال الأجانب والله أعلم، أما حديث فاطمة بنت المنذر فيفيد أن تغطية الوجه في الإحرام كان عاما في النساء لا في زمن الصحابة فقط، بل فيما بعدهم أيضا»**.اهـ.(٣)

ما الذي حدث؟

كأني بأحفاد قاسم «لا» أمين، وأحفاد الخنازير والقردة، قد وقفوا صفا واحدا، يقلّبون أكفهم حسرة، ويجزون أسنانهم غيظا وحنقا، لما رأوا نهرا فياضا من الخير يسري بين بيوتات المسلمين، وتتفتح له أزهار قلوبهم وعقولهم، وتتلقاه أرواحهم بلهفة، وتقبل عليه إقبال الظامئ على الماء البارد في اليوم القائظ، يدعوهم إلى الخير وإلى طريق النجاة، يخاطب «الناس» أنصتوا: شاشة تأخذك للجنة، فأقبل الناس وأقبلوا ينهلون من نبع «الرحمة»، ويترنمون بآيات «الحكمة»، كأني بأولئك وقد أصبحوا يقلّبون أكفهم حسرة على ما أنفقوا في سبيل تنوير هذه الأمة!، وعلى ضياع ما خططوا له منذ زمن بعيد، أو أوشك أن يضيع، وهم يرون هذه الأجيال التي كانوا ينتظرونها وهي تتفلت من بين أيديهم، وتتجه مبتعدة عن مراميهم، وتتدفق يوما وراء يوم كالسيل العرم!

فانتفضوا يصيحون ويولولون على خرابهم المنتظَر!.. وأشعلوها حربا تستعر!

الحرب على النقاب .. لماذا؟

ماذا فعلت هذه القطعة الصغيرة من القماش على وجوه المؤمنات، حتى يحاربونها هذه الحرب الضروس؟ هل تسببت في ثقب طبقة الأوزون؟ أو اختلال التوازن البيئي؟ أو انتشار الأمراض الفتاكة؟

كلا!

ولكنها الحقيقة المذهلة، إن الصحوة الإسلامية تضرب كل يوم بجذور جديدة داخل بيت مسلم، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، وهكذا تسري بين الناس تحمل ريح

الأُترجة .. ولن تترك بيتَ مَدرٍ ولا وبرٍ إلا ستدخله بعز عزيز أو بذُل ذليل.

ولقد دقت هذه الريح ناقوس الخطر فوق رؤوس العلمانيين وأذنابهم، وانتشر الرعب بينهم، كيف لا وهم يرون أن هذه الصحوة ستضع الحواجز والحُجب بينهم وبين سُعار شهواتهم، وستقطع لذة أطماعهم، وبهيمية طباعهم، وستقف حجر عثرة أمام خسة أمانيهم، ودناءة أغراضهم، وظلمهم، فانتفضوا يصرخون خوفا وفزعا!

وأصابهم المرض!!

«النقاب فوبيا».. لماذا؟!!

لأن النقاب رمز ظاهر قوي يؤكد لهم هذا المعنى الذي يخشونه، ويحفره بارزا أمام أعينهم، حتى إذا رأوا النقاب دارت حماليق أعينهم، وفارت شياطين دمائهم فورانا!

لأن نقاب المرأة المسلمة عندهم مؤشر خطر يهدد بعودة الإسلام قويا في أرواح أتباعه، غاليا على قلوبهم، مترفعا على حظوظ النفس وزخارف الدنيا.

لقد بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، والنقاب شعار لهذه الغربة، وحمل شعار الغربة عقيدة.. وأي عقيدة!

شعار لهذه الفئة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» (٤).

إنه راية العقيدة الصحيحة الصافية البريئة من كل تحريف أو تعقيد أو تعصب أو زيف.. إنه العلامة التي يُعلَم منها أن الإسلام سيعود ولكن ليس كأية عودة إنها عودة لها سمت النقاب في جلال منظره، وهيبة طلعته، وصفاء عقيدته وطهارته، عودة قوية، بيضاء نقية، على منهاج النبوة.

أصابهم المرض.. لأن النقاب نذيرٌ لصحوة الأمة من غفلتها، وتململ المارد النائم .. واقتراب الوعد الحق، لأن نساء الأمة يسعين الآن إلى أن يتشبهن بنساء الجيل الأول، الجيل الفريد، والقرون الثلاثة الأول الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٥)، فيا ويلهم ثم يا ويلهم!

«النقاب فوبيا» عندهم.. لماذا؟!

لأن نساء الأمة الآن يسعين إلى أن يتشبهن بخير النساء أمهات المؤمنين الأبرار، وبنساء الصحابة الكرام الأطهار، وأمهات الصحابة المغاوير الأبطال، فهل ينظرون إلا صواعق مرسلة تخرج من بطونهن، تدمر عروش كفرهم، أمثال خالد بن الوليد والقعقاع بن عمرو والأيوبي صلاح الدين !

أبشروا فالموت قادم والنقاب علامته!

«فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا» [الإسراء:٧].

حقيقة الحرب الضروس..

الحرب على النقاب هي حرب على عقيدة بدأت تشتعل في النفوس وهي حب الدين كله، والتسليم المطلق والتنفيذ لجميع ما جاء فيه دون تمييز، حرب

على المرأة المسلمة لما أعلنت أنها مستعدة لبذل الغالي والرخيص، حرب حاقدة على مكانة المرأة في الإسلام وعلى العفة والطهارة، الحرب على النقاب حرب على حب الله في قلوب المسلمين.

هذا الحب الجميل كان في كثير من الأحيان هو الدافع الوحيد لدى الجم الغفير من النساء اللاتي ارتدين النقاب !، فقط حب الله تعالى والرغبة في القرب منه، ولقد أزعجهم هذا الحب النبيل..

كثيرات هن اللاتي لم يشغلن أنفسهن طويلا -قبل أن يلبسنه- بالبحث الدقيق في فقه المسألة، بقدر ما استشعرن بفطرتهن السوية أن هذا هو الحق، والفعل الحسن الجميل، ولعمري هذه الفطرة النقية السليمة ما أقواها من دليل !

فما الهاجس الذي يقلق النفوس الأخرى التي تلوثت فطرُها بالضد من ذلك، تلوثت بحب الخنا والفجور وإشاعة الفحشاء في الذين آمنوا؟ ماذا نقموا منهم؟! ما الذي يخشونه؟ هل يخشون أن يأتي يوم لا يجد أحدهم وجها جميلا في النساء من حوله يتمتع بالنظر إليه؟ أبشروا بالذي يسوؤكم!.

أولئك هم مرضى (النقاب فوبيا) الذين يخشون يوما تسوَّد فيه الدنيا أمامهم، فلا يرون فيها عيونا زرقاء ولا وجوها ملونة، فقاموا الآن ينبحون نباح الكلب ويعوون عواء الذئب خوفا من هذا اليوم المشئوم .. وأقاموا الحرب الضروس ضد قطعة قماش صغيرة تهدد تلك اللذة بالفناء.. تبا لهم من بهائم حمقاء !

إنها العلمانية تكشف النقاب عن وجهها القبيح.. وتصيح: أنا ربكم الأعلى!

إنها العلمانية التي تزعم بوقاحة أنها الرب الأعلى!

فتفعل أفعال الرب، الذي بيده وحده الحق المطلق في الأمر والنهي والتشريع، فتسن قوانين تُلزم الناس بخلاف شرع الله تعالى، وتصدر قرارات تتجاوز حدودها وتتعدى على حق الله تعالى!

ذلك لأن ستر الوجه إن كان في حد ذاته مسألة فقهية من مسائل العبادات التي قد يتطرق إليها الخلاف(٦)، إلا أن منع النساء منه، وإصدار القوانين التي تُجرمه وتحظره، وإلزام الناس بذلك، هي مسألة عقدية من الأصول التي لا خلاف فيها.

وبيان ذلك أنه لما ثبت أن النقاب من الشريعة -وقد تضافرت النصوص الدالة على ذلك- أي أن الله تعالى هو الذي شَرَعَه لعباده، وهذا التشريع فعلٌ من أفعال الرب سبحانه، ومعنىً من معاني الربوبية، التي هي إفراد الله عز وجل بأفعاله؛ كان هذا الحظر للنقاب وهذا المنع منه، وهذا الإلزام للناس بضد ما شُرع لهم، بسن القوانين الملزمة والقرارات، هو منازعة للرب سبحانه في ربوبيته، الرب السيد الآمر الناهي المطاع في هذا الكون.

ولا زالت العلمانية تنازع الرب عز وجل في هذا الحق، فتمنع الناس مما شَرَعَه، وتلزمهم بخلاف شَرْعِه، وتحرم عليهم وتحل لهم ما لم يأذن به الله، فنصبت نفسها ربًّا على العباد من دون الله !

فتارة يمنعون الحجاب في بعض البلاد، وتارة يحظرون النقاب في المستشفيات أو المدارس والجامعات وأحيانا في الطرقات!

فإن قال قائل: «هم شرعوا أو وضعوا بالفعل قانونا مخالفا للشريعة، ولكنهم لم ينسبوه للدين!».

كان الجواب: وهل يظن ظان أن هناك جزءا من حياة البشر أو مظهرا من مظاهرها يمكن أن يخرج

عن الدين الذي شرعه رب البشر قدر أنملة؟ والدين هو كل ما يُدان به الناس ويحاسبون عليه، وفوق كل ذلك هم في الحقيقة أوجبوه على الناس أعظم من الدين، بل أمروا بترك الدين وألزموا الناس بما شرعوه لهم!

قال تعالى: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» [الشورى: ٢١].

السُعار العلماني على النقاب .. لماذا؟!

إن الله تعالى يقول: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» [الأحزاب: ٥٣].

وهذه الطهارة لا يرتضيها بنو علمان، ويأنفون منها، حالهم كحال قوم لوط لما قالوا: «أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» [النمل: ٥٦]، وبنو علمان يقولون: «أخرجوا أهل النقاب من جامعاتكم ومدارسكم ومستشفياتكم ومجامعكم إنهم أناس يتطهرون!!»..

مبتدئين اليوم بالنقاب أو «الحجاب الشرعي الكامل»، ثم بالحجاب الذي لا يحجب الوجه، ثم بما هو دونه، ثم بما هو دونه، وهكذا.. مبتغين التدرج نحو الدركات المهلكات كمن سبقهم من الأمم، تشابهت قلوبهم !

لكن هيهات هيهات..

فإن النقاب يقول لهم: إن المسلمين اليوم مستعدون للتمسك بدينهم كله، غير مبدلين ولا مفرطين، هم يحبون دينهم، وهذه علامة حبهم أعلنوها ظاهرة، يأخذون الكتاب بقوة، وإذا سمعوا قولا اتبعوا أحسنه.

فما الذي يزعجهم ويقض مضجعهم إذن؟!

وهل هناك من يشمئز أن يرى الدين محبوبا مرغوبا فيه بكل هذه القوة؟ وهل هناك من يكره رؤية الناس مقبلين على الدين بكل مظاهره وبدرجة الاستعداد القصوى!..

الجواب: نعم، إنهم من يكرهون الله !

«فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» [يوسف: ١٨].

الهامش:

١- أخرجه الحاكم (٤٥٤/١)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وهو صحيح على شرط مسلم وحده.

٢- أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٣٢٨/١) في الحج: باب تخمير المحرم وجهه، والحاكم (٤٥٤/١)، وصححه ووافقه الذهبي.

٣- «عودة الحجاب»، مجلد «أدلة الحجاب»، الشيخ د. محمد إسماعيل المقدَّم، صـ ٣٥٢.

٤- صحيح مسلم.

٥- صحيح البخاري.

٦- ووقوع الخلاف السائغ أمر لا مفر منه كونا وقدرا، ولكننا أمرنا بالفرار منه شرعا، وينبغي على طالب العلم أن يسعى لمعرفة الحق فيه، حيث أن (الحق فيه واحد لا يتعدد، ووجود هذا النوع من الاختلاف له حكمة كونية لا شرعية، بل المطلوب شرعا الاتفاق ما أمكن، والبحث عن الحق)اهـ «فقه الخلاف»، صـ٣٦، د.ياسر برهامي. ولفقه المسألة انظر:»أدلة الحجاب»، أحد أجزاء «عودة الحجاب»، د. محمد إسماعيل المقدَّم.

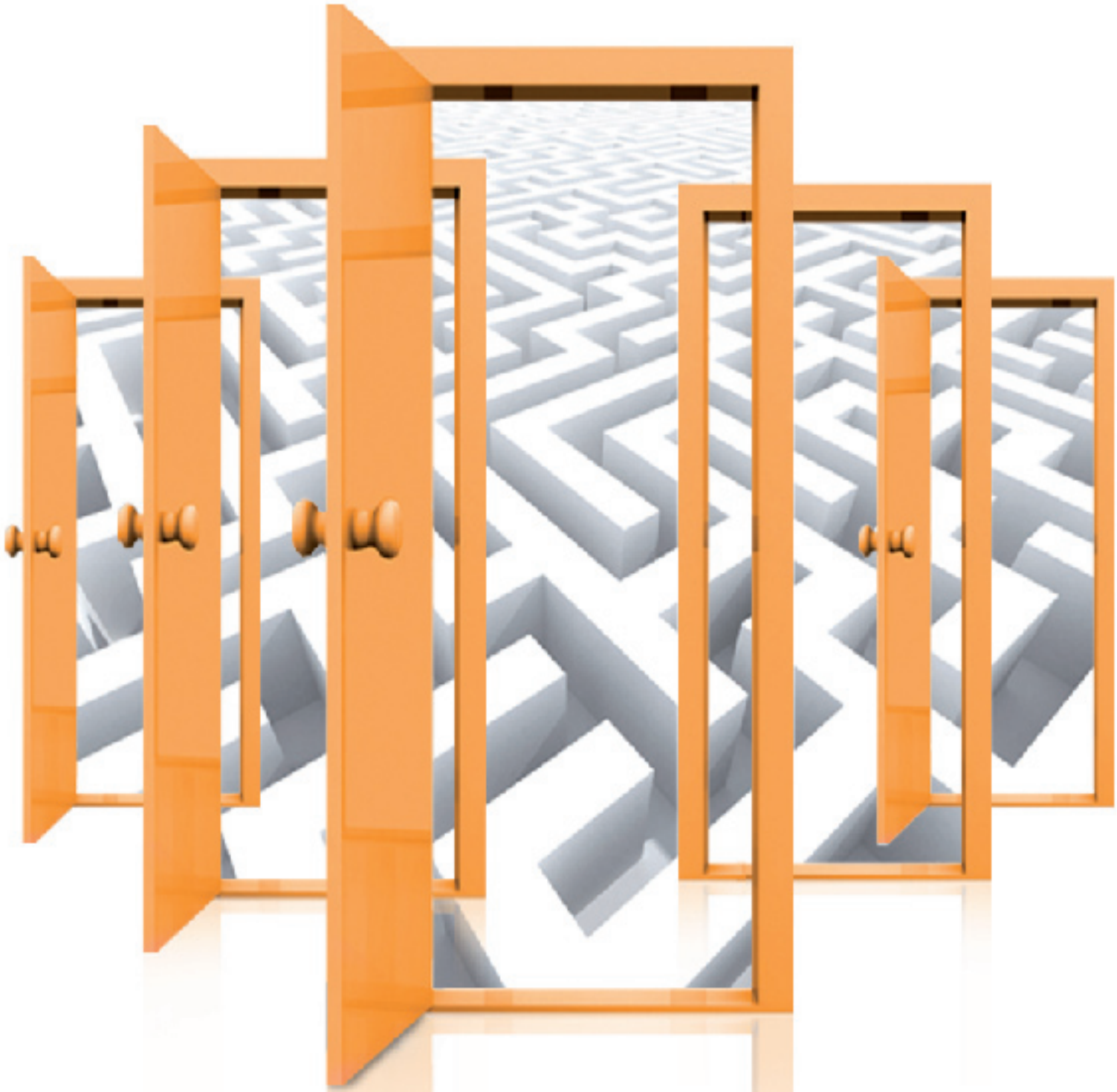

لا أعلم هويتي

الجزء الخامس

بقلم د. حسام الدين حامد

السائل:

من أعاتبُ ولمن أشتكي ؟! ولمن أقول إنني قد أكون مخطئًا.. ذلك الإلهُ الكبير الذي بالسماء أرجو أن يتقبلَ منك دعوتك لي.. أرجو أن أقترب لنور إيمانك.. أقسم لك أن كلامك معسولٌ بهداية لا أعلمها.. أقسم لك أنك تقول كلامًا لم أقرأ قبله قط..

أخي حسام الدين.. إني أتفكر كل ليلة فيما تقول.. واعلم يا أخي أنني أنتظر ردودك بالساعات..

يا أخي الكريم - وأرجو أن تتقبلني أخاً لك - كنت أظن أنني قادرٌ على إحراج المتدينين في الكلام ولكن الكلام اليوم لا يسعفني أمامك.. لأنني وبصدق هذه المرةُ الأولى التي أقرأ لأنني أريد ذلك.. أتفكر لأنني أرغب بذلك..

يا سيدي العزيز.. أعدك وبكل صدق أنني أشعر بشيء.. وربك الذي تعبده إن كلامك حرك بي مشاعرَ لا أعلمها..

أعدك وعدًا أخويًا.. أنني غداً سوف أصوم لربك وللمرة الأولى وسأحاول جاهداً أن أُصَبر نفسي كما تفعلون أنتم.. وسأجرب طريق الصيام الغريب عني.. كبادرةٍ لحسن النوايا ولأثبت لك - ولنفسي قبلاً - صدق عاطفتي تجاه دينكم الحنيف..

شكرا جزيلاً لك.. وأنا في انتظار درسي القادم.. وأرجو منك يا أخي أن تدعو لي في صلاتك.. وفي قيامك..

حسام الدين حامد

بالله الذي جعل للحق نورًا لا يقف أمامه الباطل إني لأحب لك الخير كما تحبه لنفسك..

وربي أخشى عليك كما تخشى على نفسك..

أدعو لك أكثر مما أدعو لنفسي..

كيف لا ؟!

كيف لا أحرص عليك وأنا أعلم مغبَّةَ الإعراض ؟!!

نارٌ حرُّها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد...

أتراه أمرًا هينًا ؟!

ألست أنت القائل «**وبنفس الوقت أخاف أن يفوتني قطارُ الحياة وأموت في أية لحظة وأكتشف أنني كنت على خطأ وأقابل ذلك الرب الذي قال عنه الأنبياء**»؟!

تبًا لهذا الإلحاد !! تبًا له يجعلك تصحو على خوف وتنام على قلق!!

تبًا له من معتقدٍ يجعل مضجعَك الحيرة !! وسقفَك التيه !!

ماذا لو ؟!!

سؤالٌ يتردد في أرجاء نفسك.. يزلزل قلبك.. يخلع فؤادك.. ماذا لو كنتَ على خطأ ؟!!

آه.. ستندم الندم كلَّه عندها.. لكن لن ينفعك الندم.. فليس الحين حينَ ندم..الحينُ -عندها - حينُ ألم..

أخاف عليك أن تكون مع ركب النار حين يدخلون..

«وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

آه..

نسأل الله ألا تموت إلا على الإسلام !!

تدري ما يفعل من أراد الدخول في الإسلام؟!

يقول شهادة العرفان «**أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأن عيسى عبدُ الله ورسوله**»، ويقيم الصلاة - صلته مع ربه، ويصوم رمضان وذاك الصيام حديثُه ذو شجون.. فلعلي أحدثك عنه حين تدخل الإسلام..

نسيت أن أسألك كيف حالك ؟!

أما زالت نعم الله عليك تترى ؟!

أما زالت صماماتُ الأمان تعمل ؟! أما زال المِرفقُ يعمل ؟! أما زالت عضلات يدك تعمل ؟! أما زلت تتحدث مع من حولك ؟! أما زلت تجاهرُ بكِبرك على ربك ؟!!

سبحانك ربي ما أحلمك!!

خلق لك اللسان والأسنان، والشفاه والأحبال الصوتية، والمخ و المراكز العصبية..

تتحرك الأحبال بما لا تعرف أنت عنه شيئًا لتتكلم بالكلمة..

ويمر الهواء من جوفك في مساره إلى الخارج..

ويُعدل اللسانُ والأسنان والشفاه من الوضع..

حركاتٌ دقيقةٌ متناسقةٌ حتى يخرج الصوت بالكلمة!!

دع عنك الأفكار التي تحملها الكلمة!!

جهازٌ معقد التركيب لكي تتكلم فيفهم الناس عنك وتُفهِمهم ما أردت!!

كل هذا لتنطق كلمة واحدة!!

كل هذا يجري بما يحار فيه عقلك..

كل هذا أنعم به عليك ربك..

لكنك..

لكنك - وأنا أعلم أنك تكره الجحود - عندما نطقت قلت – بجحود!!- «**أتكبرُ على خالقي!!**».

فسبحان من حلُم عليك حين كفرت!!

تدري ؟!

تدري ألّو شاء لمحا من جسدك العصب إلى أحبال صوتك.. فما عساك تفعل ؟!! ولمن عساك تشكو ؟!!

تدري ألّو شاء لأخرس لسانك حين استخدمت نعمه في الكبر عليه ؟!

تدري ألّو شاء لذهب بأسنانك وشفتيك.. أترضيك عندها حالك ؟!

تدري ألّو شاء لقبضك إليه و أماتك.. ثم عذبك فأبادك.. ثم قال للملائكة «**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ**»..

فمن يحجز عنك عذابَه إن هو أرادك على ذلك؟!

من يَردُّ عنك قضاءَه؟! أتظن أني في حاجة أن أقول لك إنك أضعفُ من ذلك فارأفْ بنفسك ؟!

أتظن أني في حاجة إلى أن أقول إنك تؤذيك شرقةٌ وتقض مضجعك بقةٌ فارأفْ بنفسك فمن كان الله خَصْمَه خَصَمَه ؟!

لكنه - ما أرحمه - ما فعل بك ذلك.. ما قطع أوصالك.. ما جزاك على كبرك عليه..

بل حلم عليك.. ودلك على مواضع الهداية..

و ها أنت الآن تعرفُ عنه وعن رسولِه..

ونداؤه يعلوك «**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»..

نداؤه يعلوك «**أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ**

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

نداؤه يعلوك «وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا»..

أرأيت كيف يتودد إليك ربُّك ؟!

أرأيت كيف يعلمك كيف تشكره على نعمه وهو الغني عنك ؟!

فما لك تنأى ؟!

وما عليك أن تقول «**آمنت بالله**» ؟!

أين أنت من فضيلة البر والشكر ؟!

أين أنت من ثناءٍ علّكَ تؤدي بعض ما عليك من حق الشكر ؟!

أين أنت من وقفةٍ بجوف ليلةٍ في إناء ركعةٍ ملؤه الدموع تناجي فيه ربك - والناس قد رقدوا - وتقول «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات الأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قَيمُ السماوات والأرض ومن فيهن**»..

إي والله قَيمُ السماوات والأرض..

أين أنت من نحيب العصاة أمام مولاهم وأنت تقول «**لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن**».

إي والله ملك السماوات و الأرض..

أين أنت من التململ بين يدي ربك عله يعفو عنك وأنت تقول «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات الأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**» ؟!

أليس هو ملك السماوات والأرض وقيم السماوات و الأرض ؟!

أم تُراك أنت القيم ؟! أم ترى الصدفة هي القَيمة؟!

أم ترى الطبيعة هي القَيمة ؟! أم ترى العدم هو القيم ؟!!

«أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ»

تدري.. عندي لك صفقة جديدة !!

التحدي الأعظم

الجزء الثاني

بقلم الأستاذ bellal
جامعي - ترجمة (عربي، فرنسي، إنجليزي)

إن استطعتم أن تنفذوا ....!

ويستمر القرآن الكريم في تحديه للإنسان ... مظهرًا ضعفَه وضآلةَ قدرته، أمام عظيمِ القدرة الإلهية في خلق هذا الكون الكبير، وأبعادِه الهائلة، وأقطارِه الواسعة العلية .

في قوله تعالى :﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن:٣٣).

تشير هذه الآيةُ إلى حقائقَ كونيةً مبهرةً لم يدركْها الإنسان إلا في العقود المتأخرةِ من القرن العشرين:

إذا كان المقصود من هذه الآيات الكريمة إشعارُ كلٍ من الجن والإنس بعجزهما عن النفاذ من أقطار كلٍ من الأرض على حدة، والسماوات على حدة، فإن المعارف الحديثة تؤكد ذلك؛ لأن أقطار الأرض تتراوح بين (١٢٧٥٦) كيلومترا بالنسبة إلى متوسط قُطرها الاستوائي، (١٢٧١٣) كيلو متراً بالنسبة إلى متوسط قطرها القطبي؛ وذلك لأن الأرض ليست تامةَ الاستدارة لانبعاجِها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطُحِها قليلاً عند القطبين.

ويستحيل على الإنسان اختراقُ الأرض من أقطارها؛ لارتفاع كلٍ من الضغط والحرارة باستمرارٍ في اتجاه المركز، مما لا تطيقُه القدرة البشرية، ولا التقنياتُ المتقدمة التي حققها إنسان هذا العصر، فعلى الرغم من التطور المذهل في تقنيات حفر الآبار العميقة التي طوَّرها الإنسانُ بحثاً عن النفط

والغاز الطبيعي، فإن هذه الأجهزة العملاقة لم تستطع حتى اليوم تجاوزَ عُمقِ ١٤ كيلو متراً من الغلاف الصخري للأرض، وهذا يمثل ٠,٢٪ تقريباً من طول نصف قطر الأرض الاستوائي، وعند هذا العمق تعجز أدواتُ الحفر عن الاستمرار في عملها؛ لتزايد الضغط، وللارتفاع الكبير في درجات الحرارة إلى درجة قد تؤدي إلى صهرِ تلك الأدوات. فمن الثابت علمياً أن درجة الحرارة تزداد باستمرارٍ من سطح الأرض في اتجاه مركزها حتى تصلَ إلى ما يقربُ من درجة حرارة سطح الشمس المقدرة بستةِ آلاف درجة مئوية حسب بعض التقديرات، ومن هنا كان عجزُ الإنسان عن الوصول إلى تلك المناطق الفائقة الحرارة والضغط. وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطباً الإنسان : ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾(الإسراء:٣٧) .

ولو أن الجن عالمٌ غيبي بالنسبة لنا، إلا أن ما ينطبق على الإنس من عجز تامٍّ عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض ينطبق عليهم. والآياتُ الكريمة قد جاءت في مقام التشبيه بأن كلاً من الجن والإنس لا يستطيع الهروبَ من قدَر الله، أو الفرارَ من قضائه بالهروب إلى خارج الكون عبْر أقطار السماوات والأرض، حيث لا يدري أحد ماذا بعد ذلك، إلا أن العلوم المكتسبةَ قد أثبتت بالفعل عجزَ الإنسان عجزاً كاملاً عن ذلك. والقرآن الكريم يؤكد لنا اعترافَ الجن بعجزِهم الكامل عن ذلك أيضاً، كما جاء في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسان الجن :

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبا﴾ (الجن:١٢) .

وذلك بعد أن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ (الجن:٨) .

ثانياً : بالنسبة للنفاذ من أقطار السماوات :

تبلغ أبعاد الجزء المُدرَك من السماء الدنيا من الضخامة ما لا يمكن أن تطويها قدرات كلٍّ من الإنس والجن، مما يُشعر كلاً منهما بضآلتِه أمام أبعاد الكون، وبعجزِه التامِّ عن مجرد التفكير في الهروب منه، أو النفاذِ إلى المجهول من بعده.

فمجرتُنا ـ سكةُ التبانة ـ يُقدر قطرها الأكبر بمائة ألف سنة ضوئية (١٠٠,٠٠٠ × ٩,٥ مليون مليون كيلو متر تقريباً)، ويُقدر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئية (١٠,٠٠٠ × ٩,٥ مليون مليون كيلو متر تقريباً)، ومعنى ذلك أن الإنسان لكي يتمكن من الخروج من مجرتنا عبر قطرها الأصغر يحتاج إلى وسيلة تُحركه بسرعة الضوء ـ وهذا مستحيل ـ ليستخدمَها في حركة مستمرةٍ لمدة تصل إلى عشرة آلاف سنة من سنيننا، وبطاقةِ انفلاتٍ خياليةٍ لتخرجَه من نطاق جاذبية الأجرام التي يمر بها من مكونات تلك المجرة، وهذه كلها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذي لا يتجاوز عمره في المتوسط خمسين سنة، ولم تتجاوز حركتُه في السماء ثانية ضوئية واحدة وربع الثانية فقط، وهي المسافةُ بين الأرض والقمر، على الرغم من التقدم التقني المذهلِ الذي حققه في ريادة السماء.

ومجموعتُنا الشمسية تقع من مجرتنا على بعد ثلاثين ألفاً من السنين الضوئية من مركزها، وعشرين ألفاً من السنين الضوئية من أقرب أطرافها، فإذا حاول الإنسان الخروجَ من أقرب الأقطار إلى الأرض، فإنه يحتاج إلى عشرين ألف سنة وهو يتحرك بسرعة الضوء لكي يخرجَ من أقطار مجرتنا، وهل يُطيق الإنسان ذلك؟، أو هل يمكن أن يحيا إنسان لمثل تلك

المدد المتطاولة؟، وهل يستطيع الإنسان أن يتحرك بسرعة الضوء؟. كل هذه حواجزُ تحولُ دون إمكان ذلك بالنسبة للإنسان، وما ينطبق عليه ينطبق على عالم الجان.

ومجرتُنا جزءٌ من مجموعة من المجرات تُعرف باسم المجموعة المحلية، يقدر قطرها بنحو ثلاثة ملايين وربع المليون من السنين الضوئية ـ ٣,٢٦١,٥٠٠ سنة ضوئية ـ وهذه بدورها تشكل جزءاً من حشدٍ مجرِّي يُقدر قُطره بأكثر من ستة ملايين ونصف المليون من السنين الضوئية ـ ٦,٥٢٣,٠٠٠ سنة ضوئية ـ وهذا الحشد المجري يكون جزءاً من الحشد المجري الأعظم، ويقدر قطره الأكبر بمائة مليونٍ من السنين الضوئية، وسُمْكه بعشرة ملايين من السنين الضوئية. وتبدو الحشودُ المجريةُ العظمى على هيئة كروية، تُدرس في شرائح مقطعية، تقدر أبعادها في حدود ١٥٠×١٠٠×١٥ سنة ضوئية، وأكبر تلك الشرائح ـ ويسميها الفلكيون مجازاً باسم الحائط العظيم ـ يزيد طولها على مائتين وخمسين مليوناً من السنين الضوئية.

وقد تم أخيراً اكتشاف نحو مائةٍ من الحشود المجرية العظمى، تكون تجمعاً أعظم على هيئة قرص يبلغ قطره الأكبر بليونين من السنين الضوئية.

والجزء المُدرَكُ من الكون، وهو يمثل جزءاً يسيراً من السماء الدنيا التي زينها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالنجوم، وقال ـ عز من قائل ـ : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك:٤).

هذا الجزء المدرك من السماء الدنيا يزيد قطره على العشرين بليون سنة ضوئية، وهي حقائق تجعل الإنسان بكل إنجازاته العلمية يتضاءل تضاؤلاً شديداً أمام أبعادِ الكون المذهلة، وكذلك الجان، وكلاهما أقلُّ من مجرد التفكير في إمكان الهروب من مُلك الله الذي لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه[١]

لا يأتون بمثله .... !

إن كلَّ أمةٍ من الناس إذا طرأ عليها جديدُ إبداع في أحد الفنون واستحسنوه تنافسوا في محاكاته ومضارعته، واقتدى بعضهم ببعض، وجاءوا بمثله أو أحسنَ منه ... لكن شيئا من هذا كله لم يكن، حينما نزل القرآن الكريم في قوم هم أهل البلاغة والفصاحة ومُلاكُ مقاليد التعبير والبيان، ولم يتقنوا فنًّا كما أتقنوا فنَّ الحديث والكلام.

بلغوا أَوجَ عظمتِهم وبراعتهم الأدبية والبلاغية حتى أن الشعر الجاهلي كان يُكتبُ بماء الذهب ويُعلق في الكعبة من شدة الإعجاب والاعتزاز... وقد أوتي القوم قوةَ الفصل بين درجات الكلام وحُسنِ وسلامة الذائقة، فكانوا يعقدون المواسم والنوادي للحكم والفصل في أعذب الأشعار وأحسنِ القصائد المعلقات ..

فلما نزل القرآن العظيم وسطع نورُه كسر ما ألِفوه من أساليب البيان، وما نشأوا عليه وأتقنوه من طرائق التعبير، فخرج عن المعهود من كلام العرب، فما هو بنثرٍ وما هو بشعر، فكان له أسلوبٌ يختص به، ويتميز في تصرفه عن الكلام المعتاد .. حتى قال قائلهم: «وما ذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم مني بالشعر، لا برجَزه ولا بقصيدِه ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنيرٌ أعلاه، مشرقٌ أسفلُه، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته ...» [٢]

فكان الجديد في لغة القرآن «أنه في كل شأنٍ يتناوله من شؤون القول يتخيرُ له أشرفَ المواد، وأمسَّها رحما بالمعنى المراد، وأجمعَها للشوارد، وأقبلَها للامتزاج، ويضعُ كلَّ مثقال ذرةٍ في موضعها الذي هو أحقُّ بها وهي أحقُّ به: بحيث لا يجدُ المعنى بلفظه إلا مرآتَه الناصعة، وصورتَه الكاملة، ولا يجدُ اللفظ في معناه إلا وطنَه الأمين، وقرارَه المكين. لا يومًا أو بعض يوم، بل على أن تذهبَ العصورُ وتجيءَ العصور، فلا المكانُ يريد بساكنه بدلا، ولا الساكنُ يبغي عن منزله حِولا ..»[٣]

وإنك لتجدُ في كتاب الله الحكمةَ وفصل الخطاب، مجلُوةً عليك في منظر بهيج، ومعرض رشيق، ونظم أنيق غير مُتعاصٍ على الأسماع، ولا مُلتوٍ على الأفهام، و لا بمستكرَهٍ في اللفظ، وإنه لَيمرُ كما يمر السهم، ويضيئُ كما يضيئ الفجر، ويزخرُ كما يزخر البحر، طَموحُ العباب، جموح على الطارق المنتاب، كالروح في البدن، والنور المسطر في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾فصلت ٤٢[٤]

فما قدر أحد منهم على أن يجاريَه، أو يقترحَ تغييرا فيه، في آية أو جملة أو حتى كلمة فيه، وهم على ما عرفتَ من البلاغة والفصاحة .. ثم فتح لهم باب المعارضة، ودعاهم فرادى وجماعات، بل تحداهم وكرر التحدي في أكثرَ من مرة، متهكمًا بهم، متنزلا معهم إلى الأسهل فالأسهل: دعاهم أن يأتوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، ثم إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، وأكد أنهم لو اجتمعوا بمن في الأرض وكان الجن لهم ظهيرا ما استطاعوا أن يجيئوا بمثله .

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨).

وقد انهزم القوم وعجزوا عن المعارضة والتصدي لهذا التحدي، وما انبرى لذلك منهم سوى سفهائهم وأراذلِهم، فكانوا مضحكةً لهم ولغيرهم وعبرةً لمن يعتبر ممن خلَفَهم إلى يوم الناس هذا .

هذا شيء في إعجاز القرآن والتدليل على أنه أثرٌ إلهي لا ريب فيه، ولا سبيلَ إلى مواجهة إعجازه وتحديه .. وهذه الأمثالُ تبرز وجهاً من أوجه القرآن الكريم، ومظهراً من مظاهره، حينما يرد على المنحرفين والطاغين، وأصحابِ الدعاوى الزائفة، بأُسلوب علمي قوي، يتعطل عنه منطق اللسان، وتسقط أمامه كلُّ مماحكةٍ جدلية .. ولْيعوا أمرَهم، ويعرفوا قدْرَهم، ويدركوا حقيقة عجزهم وضعفهم، أمام القدرة التي لا يُعجزها شيء والتي تتصرف مطلَقةً من كل قيد ... ويبقى التحدي ما بقي الليل والنهار ...

---

[١] موقع زغلول النجار (بحث له).

[٢] أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقال الشيخ الألباني في صحيح السيرة: وهو كما قالا . (موقع : ملتقى أهل الحديث)

[٣] النبأ العظيم : الدكتور محمد عبد الله دَراز

[٤] إعجاز القرآن : أبوبكر الباقلاني

من أقوال السلف

قال ابن الجوزي رحمه الله: «من أراد أن يعلم حقيقة الرضى عن الله عز وجل في أفعاله، وأن يدري من أين ينشأ الرضى، فليفكر في أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك، وللمالك التصرف في مملوكه، ورآه حكيماً لا يصنع شيئاً عبثاً، **فسلم تسليم مملوك لحكيم**، فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير، ولا من الطبع تأفف.

ولا يقول بلسان الحال: لو كان كذا، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح».

صيد الخاطر ص ٩٨

فصل: في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين وذكر انقسام الملحدين

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حملت لمعان
إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميـ ... ـل بالإشراك والتعطيل والنكران

متن القصيدة النونية لابن القيم ص ٢١٦

وقال ابن تيمية رحمه الله : « أسعد الخلق وأعظمهم يقيناً وأعلاهم درجةً أعظمهم إتباعاً وموافقة له علماً وعملاً».

مجموع الفتاوى ٤ / ٢٦ .

مفهوم العقل بين الأصوليين والفلاسفة

بقلم د أبو مريم

هناك أكثر من استعمال لمصطلح العقل يختلف باختلاف اللغات والأعراف والتوجهات العقائدية والخلفيات العلمية، فمثلا كانت كلمة «العقل» تستعمل قريبا من استعمال كلمة Mind في الإنجليزية اليوم لتغطي عمليات الوعي والفهم المختلفة؛ فيدخل فيها الإنسان والحيوان أيضا - وقد استعملها بهذا المعنى انكساجوراس وتبعه أنبادوقليس(١) قبل أن تأخذ عمقا فلسفيا.

وهي تستعمل بهذا المعنى حتى الآن وربما أَدخل بعضهم فيها اليوم الآلة كما في قولهم «العقول الإلكترونية»(٢) يضاف لذلك في اللغات الأوربية معانٍ أخرى كالعلة خاصة الغائية (٣) وفي الثقافة العربية تستعمل بمعنى العقل الأول على خلفية بعض الآثار الضعيفة(٤) التي فُسرت في ضوء التأثر بالفلسفة اليونانية .. وهكذا .

والعقل في أصل اللغة : المنع، يقول ابنُ فارس في مقاييس اللغة :

«العين والقاف واللام أصلٌ واحد مُنقاس مطرد، يدل عِظَمه على حبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل»(٥) .

قال ابن السمعاني: وكان بعض الأئمة يسميه أُم العلم. وكثر الاختلاف فيه حتى قيل: إن فيه ألفُ قول. وقال بعضهم:

سل الناس إن كانوا لديك أفاضلا

عن العقل وانظر هل جوابٌ يُحصَل(٦)

وقد اختصرها ابنُ سينا إلى أحد عشر معنىً ونقلها عنه الغزالي في معيار العلم، وهى تقسم بحسب مستعمَلِها إلى ثلاثة

أقسام فبعضها خاص بالعوام وهي ثلاثة استعمالات:

الأول: يراد به صحة الفطرة الأولى في الناس، فيقال لمن صحت فطرته الأولى: إنه عاقل، فيكون حده إنه قوة بها يجود التمييز بين الأمور القبيحة والحسنة.

الثاني: يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية، فيكون حده أنه معانٍ مجتمعةً في الذهن تكون مقدمات يُستنبط بها المصالح والأغراض.

الثالث: معنىً آخر يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته، ويكون حده إنه هيئةٌ محمودة للإنسان في حركاته وسكناته وهيئته وكلامه واختياره.(٧)

أما الفلاسفة فيطلقون لفظ العقل على ثمانية معان:

منها المعنى الذي يقصده المتكلمون، وهو الذي ذكره أرسطو في كتاب البرهان، وهو التصورات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة وهذا المعنى هو الذي حد المتكلمون العقل به إذ قال القاضي أبو بكر الباقلاني في حد العقل: إنه علم ضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم باستحالة كون الشيء الواحد قديما وحديثا، واستحالة كون الشخص الواحد في مكانين.(٨)

والثاني: العقل النظري وهو قوة للنفس تقبل ماهيات الأمور الكلية من جهة ما هي كلية، وكأن هذا هو المراد بصحة الفطرة الأصلية عند الجماهير كما سبق وقد عرفه أرسطو في كتاب النفس بقوله: أعني بالعقل ما تتفكر به النفس وتعقل المعاني(٩) وهذا العقل له عدة أحوال يطلق على كل منها عقلا: هو العقل الهيولاني والعقل بالملَكة والعقل بالفعل والعقل المستفاد .

فالعقل الهيولاني: وهو حالة للقوة النظرية لا يكون لها شيء من المعلومات حاصلة، وذلك للصبي الصغير، ولكن فيه مجرد الاستعداد فحده أنه قوة للنفس مستعدةٌ لقبول ماهيات الأشياء مجردةً عن المواد، وبها يفارق الصبي الفرس وسائر الحيوانات لا بعلم حاضر ولا بقوة قريبة من العلم.

وأما العقل بالمَلكة: وهو ما ينتهي إليه الصبي عند التمييز وحده أنه استكمال العقل الهيولاني حتى يصيرَ بالقوة القريبة من الفعل.

وأما العقل بالفعل: فإنه استكمال للنفس بصورٍ ما، أي صورٍ معقولة حتى متى شاء عقَلَها أو أحضرها بالفعل.

وأما العقل المستفاد: فهو أن تكون تلك المعلومات حاضرةً في ذهنه وهو يطالعها ويلابِس التأملَ فيها، وهو العلم الموجود بالفعل الحاضر؛ وحدُّ العقل المستفاد أنه ماهيةٌ مجردة عن المادة مرتسمة في النفس على سبيل الحصول من خارج(١٠)؟

وهناك العقل العملي وهو قوة للنفس محركة ليس من جنس العلوم، وإنما سميت عقلية لأنها مؤتمَرةٌ للعقل مطيعة لإشاراته بالطبع، وهى ليست العقل النظري لأن العقل النظري لا يكفي وحده للإلزام الخلقي فكم من عاقل يعرف أنه مستضَرٌ باتباع شهواته، ولكنه يعجز عن المخالفة للشهوة لا لقصور في عقله النظري بل لفتورِ هذه القوة التي سميت العقل العملي، وإنما تقوى هذه القوة بالرياضة والمجاهدة والمواظبة على مخالفة الشهوات.(١١)

وأما **العقل الفعال** فهو نمط آخر، والمراد بالعقل الفعال كلُّ ماهيةٍ مجردة عن المادة أصلا، فحد العقل الفعال من جهة ما هو عقل فإنه جوهري صوري ذاته ماهية مجردة في ذاتها، لا بتجريد غيرها لها عن المادة وعن علائق المادة، بل هي ماهية كلية موجودة، وأما من جهة ما هو فعال فإنه جوهر بالصفة المذكورة من شأنه أن يُخرج العقل الهيولاني من القوة إلى الفعل بإشرافه عليه.(١٢)

ويلاحظ على هذا التقسيم ما يلي :

* أن العقل بالمعنى الذي يقصده جمهور المتكلمين أو الأصوليين هو نفسه المعنى الذي ذكره أرسطو في كتاب البرهان ويعنى العلوم الضرورية .

* أن بعض تلك العقول ليست سوى حالات مختلفة للعقل النظري وهي الهيولاني والمستفاد والعقل بالملكة والعقل بالفعل .

* أن العقل الفعال خارج عن هذا الإطار وقد خلطه بعض المتكلمين وفلاسفة الإسلام بالعقائد .

أن العقل العملي هو قوة إلزامٍ أكثر منها قوة عقلية بالمعنى الذي حدده الفلاسفة .

فالحاصل أن العقل يطلق على أربعة أنواع:

العقل النظري

العقل بمعنى العلوم الضرورية

العقل العملي الذي هو قوة إلزام

العقل بمعنى الخبرة المكتسبة من التجارب وهو بمعنى الحكمة وحُسن التصرف في الأمور الحياتية.

يقول ابن تيمية: إن المختار أن لفظ العقل يقع الاستعمال فيه على أربعة معان: إما بالاشتراك أو على أقل الاشتراك، ثم بعضها يطلق على ما تتم به الأربعة بالتواطؤ أو على بعضها مجازا؛ الأول ضروري وهو الذي عني به الجمهور من أصحابنا وغيرهم أنه بعض العلوم الضرورية.(١٣)

فالذي يطلقه الجمهور على سبيل المجاز هو الذي يُستفاد بالتجربة كقولنا: «شخص عاقل» بمعنى الحكيم الذي حلب الدهر أشطره .

وأما ما يطلق عليه عقل بالاشتراك فهو العقل العملي(١٤) لأنه ليس من جملة العلوم بل هو قوة يتمكن بها الشخص من الانتهاء عن القبائح، وإنما سميت عقلا لكونها مؤتمرةً بالعقل والفرق بينها وبين العقل النظري أن المرء لا يمكنه بمجرد إدراك قبح القبائح أن يمتنع عنها إلا في وجود تلك القوة التي سميت عقلا .

بقي العقل النظري، والعقل الذي هو بمعنى العلوم الضرورية، هل هما بمعنىً واحد أم أنهما مختلفان ويطلق لفظ العقل عليهما بالاشتراك أو بأقل الاشتراك؟

الواقع أن الأمر يحتاج لنظر فالذي يتضح من كلام أرسطو ومن كلام جمهور المتكلمين أن العقل يطلق بالتواطؤ على العقل النظري والعقلِ بمعنى العلوم الضرورية؛ فأرسطو في كتاب «دعوة للفلسفة» أطلق لفظ العقل على أنه الملَكة التي بها يكتمل وجود الإنسان فقال: «إذا سلمنا بأن النفس تنشأ متأخرةً عن الجسم، وأن آخر ما ينشأ من ملكات النفس هو ملكة العقل؛ إذ إننا نلاحظ أن هذه الملكة بطبيعتها آخر ما يتكون عند الإنسان، ولهذا كانت هي الخير الوحيد الذي تطمح الشيخوخة إلى امتلاكه.. إذا سلمنا بذلك كله تبين لنا أن ملكة العقل بحسب طبيعتها هي هدفنا وأن استخدامها هو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا ..»(١٥) وهذا يشير بوضوح إلى أن المقصود بإطلاق العقل عنده إنما هو العقل النظري منذ البداية على اعتبار أن كتاب دعوة للفلسفة هو من الكتب المتقدمة لأرسطو .

وقد ورد في الترجمة العربية للمنطق عبارة: «.. وأعني بالعقل مبدأ العلم»(١٧) وقد ذكر ابن سينا والغزالي أن أرسطو يطلق العقل على العلوم الضرورية، ويفسر ذلك أرسطو بقوله: «إن قوة الحس وقوةَ العقل هما بالقوة نفس موضوعَيهما أحدهما المعقول بالقوة والآخر المحسوس بالقوة فبالضرورة كانت هذه القوى هي نفس موضوعاتها أو على الأقل نفس صورها»(١٨).

وهذا يعنى أن كليهما بمعنىً واحد وليس يطلق اللفظ عليهما بمعنى الاشتراك بل بالتواطؤ، وهو ما

يتفق مع ما ذهب إليه جمهور المتكلمين، والدليل أنه لو كان المقصود هنا أن العقل يطلق على جملة العلوم الضرورية بالاشتراك لما كان هناك خلاف بينهم لأن الأمر في تلك الحالة كان لا يعدو خلافا لفظيا أو خلافا حول الاصطلاح، لكن لما كان الخلاف حقيقيا وهو أن بعضَهم يقول عن العقل الذي يوصف بكونه الملكة أو الغريزة هو نفسه تلك العلوم ولا فرق بينهما، والآخر يرى أن العقل الذي يوصف بكونه الملكة أو الغريزة يختلف عن العقل بمعنى العلوم الضرورية؛ حصل الخلاف الذي استوجب استدلال كل من الفريقين على صحة ما ذهب إليه .

فالحاصل إذن أن هناك مذهبين للأصوليين: فبعضهم يطلق لفظ العقل بمعنى العلوم الضرورية على العقل الذي هو الغريزة والملكة ويرى أنهما شيء واحد وأن العقل يطلق عليهما بالتواطؤ .

والبعض الآخر: يرى أن العقل الذي هو الغريزة والملكة ليس هو بمعنى العقل الذي هو جملة العلوم الضرورية وأن لفظ العقل يطلق عليهما بالاشتراك .

فقد ذهب جمهور المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة وأصحابِ أحمد على الرغم من اختلافهم في العبارة إلى أن العقل هو جملة العلوم الضرورية فالباقلاني وأبو يعلى(١٩) يقولان: إن العقل عبارةٌ عن العلوم الضرورية ويقول الأشعري: «إن العقل هو العلم»(٢٠) ويقول ابن فورك في كتاب الحدود العقل: هو البداءة من العلوم التي لا يُشرك في علمها العاقلون البهائم، والمتيقظون النُّوَم.

وقد استدل الباقلاني على ذلك بأنه لا يتصف بالعقل خال عن العلوم كلها، ولا شك أن ذلك الاستدلال واهٍ جدا، وقد أبطله الجويني بقوله: إن الإنسان يذهل عن الفكر في الجواز والاستحالة وهو عاقل.

والواقع أننا لو سلمنا بقول الباقلاني للزم التسليم بأن كل شرط هو المشروط بعينه ومعلوم أنه لا يمتنع أن يكون العقل مشروطا بعلوم وإن لم يكن منها(٢١)

لكن الجويني في كتابه التلخيص في أصول الفقه ينقل عن القاضي الباقلاني دليلا آخر ويقره عليه، ومفاده أن العقل إما جوهر أو عرض، لكنه ليس بجوهر لأن الجواهر متجانسة ولو صح أن العقل جوهرًا لصح أن يعقل نفسه ويحيا ويتصف بجميع صفات الجواهر القائمة بأنفسها، فاتضح بُطلان كونه جوهرا، وثبت أنه من قبيل الأعراض، ومحالٌ أن يكون عرضا غير سائر العلوم لأنه لو كان كذلك لصح وجود سائر العلوم مع عدمه حتى يكون العالِمُ بدقائق الفنون غيرَ عاقل فخرج من ذلك العلوم الكسبية، ويستحيل أن يكون هو كل العلوم الضرورية كالعلم باللذة والألم لأنها مما يتصف به المجانين والبهائم، ولا العلم بالمدركات وإلا لوجب للفاقد لها لفقده آلة الإدراك أن يسمى غير عاقل.. فثبت أنه العلم ببعض العلوم الضرورية .

قال الجويني: «ولو أردتُ عبارة أوجَزَ مما قدمه القاضي رضي الله عنه لقلت: العقل علوم ضرورية باستحالة مستحيلات وجواز جائزات، ثم تُفصله على ما قدمناه، ولا تقدر ذلك من قبيل الحدود الفاصلة المميزة نحو حد العلم وغيره مما يحد فإن هذا صرف إلى بعض العلوم ولا تستتب فيه العبارة إلا بزيادة كشف وتحصيل».(٢٢)

ويبدو أن كتاب التلخيص من الكتب المتقدمة لإمام الحرمين وقد كان فيها حريصا على موافقة الباقلاني وتعظيمِه وعدم التصريح بمخالفته وإلا فإن ما نقله لا ينهض دليلا حتى مع التسليم بفكرة تقسيم الموجودات إلى جواهر وأعراض قائمة بها وأنها قسمة حاصرة، فإنه لا مانع من أن يكون العقل عرضا تدرك به النفس العلوم ولا يكون من جملتها .

لكن لماذا صرحوا بأن العقل هو جملة العلوم الضرورية ؟

الواقع أن هناك فرقا بين المدرِك والمدرَك وأداة

الإدراك؛ فالمدرك: هو العاقل والمدرَك: هو العلوم الضرورية والعقل: هو أداة الإدراك، ولما كانت هذه الأداة لا تعمل إلا بوجود مبادئ هي في حد ذاتها مدركات وصفت تلك المدركات المبادئ بأنها ذاتها هي العقل وأُطلق عليها اسم العقل .

قال الشافعي في الرسالة: «فدلهم جل ثناؤه إذا غابوا عن عين المسجد الحرام على صواب الاجتهاد مما فرض عليهم منه بالعقول التي ركب فيهم المميزة بين الأشياء وأضدادها»(٢٣) فالعقل عنده بمعنى الغريزة التي يدرك بها الإنسان العلوم وليست من جنس العلوم كما ذهب المتكلمون.

وقد نقل ابن تيمية عن أحمد أنه قال العقل غريزة.. قال: «والبربهاري كلامه يقتضي أن العقل هو القوة المدركة كما دل عليه كلام الإمام أحمد وليس هو نفس الإدراك، وهذه المسألة من جنس مسألة الإيمان والوجوب ..»(٢٤).

وقال إمام الحرمين: «وقال الحارث المحاسبي: العقل غريزة يتأتى بها درك العلوم وليس منها» ، ثم قال: «والقدر الذي يحتمله كتابنا أن العقل صفة إذا ثبتت يتأتى بها التوصل إلى العلوم النظرية وإلى مقدمتها من الضروريات التي هي مستند النظريات»(٢٥).

وهذا يعني أن العقل عندهم ليس هو العلم بالضروريات أو من جملة العلوم الضرورية وإنما هو صفة معها تتحصل تلك العلوم للمتصف بها على اختلاف في العبارة يعود إلى اللفظ، فهو ما يدرك به الإنسان القضايا الضرورية، ومنها - إن قلنا إن العقل يمكنه إدراك حسن الأفعال وقبحها على وجه من الإجمال - ما يعرف به الفرق بين القبيح والحسن من الأفعال دون أن يكون ذلك هو مصدر الإلزام الذي يسمى بالعقل العملي.

ولا شك أن ذلك ينبني عليه التمييز بين الإنسان والحيوان؛ فبالعقل يفكر ويستنتج ويبني النتائج على المقدمات ويستدل على صحة القضايا بإسنادها للضروريات، وبالعقل يعرف أن هذا الفعل قبيح وهذا شرط في الامتناع عنه على وجه يحمد عليه ويعرف أن هذا الفعل حسن وهو شرط في فعل الشيء على وجه يحمد عليه..

ولذلك كان العقل الذي به يدرك الإنسان الضروريات هو العقل الصارف عن القبيح الداعي إلى الحسن، هو نفسه ما يفرق بين الإنسان والحيوان.

ثم الخلاف بعد ذلك حول طبيعة ذلك العقل وكيف يدرك مما لا صلة له بالمشار إليه:

ولكن هناك سؤال قد يتبادر للذهن وهو: كيف تدرك الضروريات بالعقل والعقل لا يُدرَكُ إلا بها؟

من الممكن الخروج من هذا الإشكال بالقول إن العقل يدركها بذاته ولا يدرك غيرها إلا استنادا إليها.

وقد ترتب على الخلاف بين الأصوليين حول كون العقل هو جملة العلوم الضرورية أو هو غريزة مسائل منها الخلاف حول تفاوت العقل من شخص لآخر؟

فالذين قالوا: إن العقل هو جملة العلوم الضرورية قالوا: بأن العقل لا تفاوت فيه من شخص لآخر، ولا يجوز أن يكون عقل هو أرجح من عقل، وممن صرح بذلك: أبو الخطاب، وابن عقيل (٢٦)، وهذا مذهب المعتزلة فيما حكاه القاضي أبو يعلى، والأشعرية كالباقلاني، وقالت الأشعرية: وأما قولهم عقل فلان أرجح من عقل فلان فإنما هو من التجارب وقد تسمى التجارب عقلا(٢٧).

الهامش:

(١) انظر الدكتور مصطفى النشار: نظرية المعرفة عند أرسطو، دار المعارف القاهرة ، ط١، ١٩٨٥ص٨٣

(٢) انظر دكتور عبد المنعم الحنفي: المعجم الفلسفي ، الدار الشرقية القاهرة ، ١٩٩٠، ص ٢٠٨.

(٣) انظر الدكتور مصطفى النشار: نظرية المعرفة عند أرسطو ص ٨٣

(٤)عن أبي أمامة، - رضي الله عنه قال -: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:»لما خلق الله العقل، قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزتي ما خلقت خلقا أعجب إلي منك، بك أعطي وبك الثواب وعليك العقاب» أخرجه الطبراني (٢٨٣/٨ ، رقم ٨٠٨٦) وفيه عمر بن أبى صالح قال الذهبي : لا يعرف، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبى هريرة (١٥٤/٤،رقم ٤٦٣٣) و أخرجه ابن عدى (٣٩٠/٢ ، ترجمة ٥١٢ حفص بن عمر) وأعل الحديث به: وقال بعد أن أخرج له هذا الحديث وغيره من مروياته: ولحفص بن عمر أحاديث غير ما ذكرته ولم أجد له أنكر مما ذكرته، وقال: قال أحمد: ضعيف، وقال عبد الله بن محمد عن ابن عيينة: كان يرى القدر وليس أهلا أن يروى عنه، و قال أبو عبد الله الزرعي في نقد المنقول (تحقيق حسن السمعاني ، درا القادري بيروت، ط١ ١٤١١-١٩٩٠ ، ص ٦٠): أحاديث العقل كلها كذب، وذكر هذا الحديث في أول كلامه.

(٥)أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م. مادة (ع ق ل) ٦٩/٤

(٦) الزركشي البحر المحيط ٧٠/١

(٧) انظر الغزالي: معيار العلم في المنطق، شرحه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١٠-١٩٩٠، ص١٧٥-٢٧٦، وقارن ابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعة، دار العرب للبستاني القاهرة، ط٢، ١٩٨٩. ص ٧٩-٨٠.

(٨) انظر السابق ص ٢٧٧، وقارن ابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعة ص ٨٠

(٩) أرسطو: كتاب النفس ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، راجعه على اليونانية جورج شحاتة قنواتي، عيسى البابي الحلبي، ط١ ،١٩٤٩، ص ١٠٨

(١٠) انظر أبا حامد الغزالي: معيار العلم في المنطق ص ٢٧٨، وقارن ابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعة ص ٨٠

(١١) السابق ص ٢٧٧

(١٢) انظر السابق ص ٢٧٩، معارج القدس ص١٨ ، الجرجاني: التعريفات ص ٤٩-٥٠، وقارن ابن سينا: تسع رسائل في الحكمة والطبيعة ص ٨٠-٨١.

(١٣) آل تيمية: المسودة ص ٤٩٩

(١٤) يقول ابن سينا: «وأما النفس الناطقة الإنسانية فتنقسم قواها أيضاً إلى قوة عاملة وقوة عالمة وكل واحدة من القوتين تسمى عقلاً باشتراك الاسم فالعاملة قوة هي مبدأ محرك لبدن الإنسان إلى الأفاعيل الجزئية الخاصة» ابن سينا: النجاة ص ١٣٦

(١٥) أرسطو: دعوة للفلسفة (بروتريبتيقوس) قدمه للعربية مع تعليقات وشروح الدكتور عبد الغفار مكاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧) ص ٣٧-٣٧

(١٦) أرسطو: كتاب النفس ص ١٠٨

(١٧) أرسطو: منطق أرسطو، التحليلات الثانية ٤٢٣/٢

(١٨) هو القاضي الإمام محمد بن الحسين بن أحمد بن الفراء أبو يعلى ومن مؤلفاته: المعتمد – إبطال التأويل – أحكام القرآن – الأحكام السلطانية والعدة في أصول الفقه وغيرها كثير ولد سنة ٣٨٠هـ - وتوفي ٤٥٨هـ، انظر طبقات الفقهاء الحنابلة تأليف القاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى البغدادي الحنبلي تحقيق الدكتور علي محمد عمر الجزء الثاني مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الأولى القاهرة ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م . ص ٢٥٩وما بعدها

(١٩) الزركشي: البحر المحيط ١٦٥/١

(٢٠) انظر السابق

(٢١) انظر الجويني أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف: كتاب التلخيص في أصول الفقه، تحقيق عبد الله النبالي وبشير أحمد العمري، دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، ١/ ١١٠-١١٣

(٢٢) الشافعي: الرسالة ٢٣-٢٤

(٢٣) آل تيمية: المسودة ص ٤٩٨

(٢٤) الجويني: البرهان ٩٥/١-٩٦

(٢٥) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل عالم العراق وشيخ الحنابلة، وله كتاب الفنون، والواضح في أصول الفقه ولد سنة ٤٣١ توفي سنة ٥١٣هـ، انظر الزركلي: الأعلام ٣١٣/٤

(٢٦) آل تيمية: المسودة ٥٠٠/١

قسم العقيدة والتوحيد

العقيدة ..
الأسماء والصفات ..
التوحيد ..

قسم الحوار عن الإسلام

القضايا المتعلقة بالإسلام
وتحدياته ووسائل نشره
وتطبيقه والشبهات المثارة
حوله

قسم الحوار عن المذاهب الفكرية

مناظرات ومحاورات
للمذاهب الفكرية
المادية والإيديولوجيات
المعاصرة

قسم الحوارات الخاصة

حوارات خاصة للمسلمين الجدد
.. أو أصحاب الشبهات ..
المواضيع لا يراها إلا صاحب
الموضوع والإدارة والمرشحين
للحوار

جميع الحقوق محفوظة لموقع منتدى التوحيد، لتواصلكم واقتراحاتكم زوروا منتدانا